كتب للجميع

الضاحك الباكي

لفكري أباظة بك

جميع الحقوق محفوظة

٢٥ شارع توفيق القاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصرى »

كتب للجميع

الضاحك الباكي!

لفكري أباظة بك

جميع الحقوق محفوظة

٢٥ شارع توفيق القاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصري »

كل مافى هذا الكتاب قد وقع . . .

فاقرأوه على أنه حقيقة . . .

ولا تقرأوه اذا ظننتم أنه خيال

فكرى أباظه

المحامى

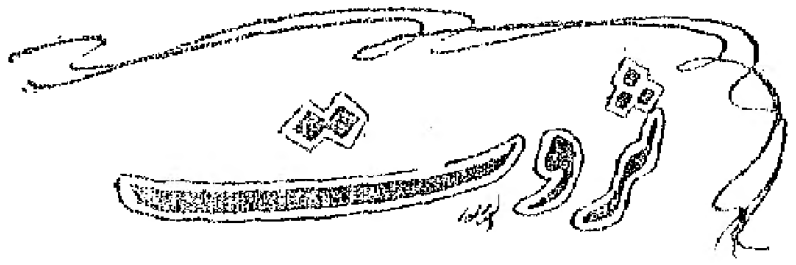

الدمعة الاولى ! ...

نحن الان فى اغسطس سنة ١٩١٧ ...

وقد تخرج الاستاذ « شكرى ... » فى مدرسة الحقوق . حاملا شهادة « الليسانس » . ولكن فرحه بها كان دون فرحه بلقب « استاذ » . وهو لاول مرة يعنى بلبس « النظارة » كانها من مستلزمات الفقهاء أساطين القانون . ويحمل عصا ناخرة تزن مشيته على قاعدة موسيقية فيس فيها نشاز . وتساعد على ان يبدو متئدة رزينة فى نظر مخلوقات الله و « زبائن المستقبل » ...

والاستاذ « شكرى ... » لم ينس بتاتا أن يلبس ياقة امريكانية وربطة رقبة من نوع مايلبسه الرسامون والممثلون وارباب الخيال ...

هل افلحت كل هذه الاستعدادات فى أن تجعل من مراد خلقته «الخام» شيئا جميلا ؟!

يقول الآنسات والسيدات واصدقاؤه الشبان وممارفه الرجال : كلا !

ويصر هو على أن يكون الجواب بالايجاب ...

على أن المشكلة لم تكن وليدة هذا الخلاف . بل ان انكى مانكب به هذا « الاستاذ » ان خصومه فى جماله كانوا يجمعون على الاعتراف بأن « تقاطيع » وجهه منفصلة مجزأة مستقلة جميلة .. أى أن كل واحدة على حدتها لاعيب فيها . ولكنهم يجمعون فى الوقت نفسه على ان مجموعها ليس بالجميل ... وكانت هذه النظرية غير مقبولة فى نظره من الوجهة الحسابية والعملية : مادام كل جزء جميلا فالكل جميل ... كانت هذه قاعدة دفاعه وخطة مرافعاته . وكانت روحه المرحة تساعد على ذيوع شناعة خلقته . حتى تعدوا الحقيقة بمراحل فظلموه ...

خريج المدرسة لا يعنى بالمستقبل اكثر مما يعنى بالعواطف . انه قد أدى واجبه وقطع مراحل الدراسة واصبح فى مصاف الرجال : أول ما يصطدم به الخريج بعد عناء الدرس هو الحب ! . . .

خلا القلب من هم الجغرافيا والتاريخ والحساب . وخلا الذهن من هم القانون الرومانى والاقتصاد والحجز على الاسهم والسندات . اذن فى قلبه وذهنه فراغان فلتملاهما « جولييت » و « ليلى العامرية » و « كليوباترا » وغيرهن من مخلوقات الله الحسان . . .

واخذ يبحث عن الحب فدله احد اصحابه عن المنزل نمرة ١٩ فى « بنسيون » اربا بقرائى ان اسميه . . . مالكم واسم « البنسيون » وموقعه والحب لاعلاقة له بالقصور ولا بالاكواخ . والحب لاصلة له بالجوامع ولا بالكنائس ولا بالمواخير . الحب أنى وجد هو الحب ! له قدسيته فى أقذر البيئات وأحط المقاور والحانات . له جلاله وعظمته فى أحقر الشخصيات وأدنأ الارواح والنفوس . الحب هو مرض ، هو جنون ، هو حمى ، هو شىء لم يدركه الاولون ولن يدركه الآخرون . . .

كانت الفتاة تسمى « ثروت » وكان اسمها فذا عجيبا ، ولغرابة الاسماء فى بعض الاحايين جاذبية تضيف الى سائل العواطف نسبة معينة من العواطف . . . ماعهدنا ان « ثروت » اسم يطلق على الفتيات ولكن ما العمل واسمها « ثروت » ؟ ! .

* * *

نظر اليها الاستاذ نظرته البسيكولوجية . وسلط عليها أشعة فراسته فلاحظ انها تبدو طبيعية فى كل شىء . فهى لاتغرق فى المجاملة كما يغرق فيها غيرها من محترفات الحب ومرتزقة الاهواء . وهى لاتعنى بالحاضرين والذاهبين . ثم هى بين آونة وأخرى تصدر زفرة أو حسرة أو آهة . من أعماق النفس لا من الحلق . . ثم هى لاتعنى أقل عناية بتواليت الوجه ولا باناقة الملبس . وكأنها بعد تعدد المقابلات حنت الى صداقته ووجدت فيه مالم تجده فى غيره من الرواد

وفى ليلة من الليالى اصطحب الاستاذ معه أخاه الاصغر . ولم يكن صغيرا الحد الذى لايناسبه الاصطحاب وانما كان فى سن الشباب الناضج . فلما تم التعارف بينها وبينه

قذفت الاستاذ بنظرة ازدراء رهيبة ثم همست فى اذنه قائلة: يالها من سقطة . !

قال الاستاذ بلهجة المحاكم : واذا جاء وحده . ؟

قالت : تكون بريئا من ذنبه ويكون بريئا من ذنبك . احترامك فرض مفروض على اخيك الاصغر وقد تطوعت للقضاء على هذا الاحساس . ثم هبه يعلم فان التجاهل يقوم مقام الجهل فهب انصرف فى الحال وخذه معك !.

* * *

هذا الدرس الصغير وقع وقعه المؤثر فى نفس صاحبنا فشعر بالخجل العادل المصحوب بالمنطق المعقول . وفى الزيارة التالية شكر لها نصيحتها فزادته شرحا بان قالت :

وهب ان اخاك هذا مال الى . وهبنى ملت اليه أنا الاخرى وعذرى واضح : فهو أصغر منك سنا وارشق قواما . واجمل تنسيقا وتركيبا . هب ان الحب تمكن بيننا والحب لا يخضع لتقاليد ولا لاداب ولا لوفاء أو ولاء . هب اننا اخلسنا خباياه وخفاياه فى غفلتك وشاءت الظروف ان تكشف الخبايا والخفايا . أى عداء تولده الغيرة واى شقاء تنكب به الاسرة !!

قال لها : صدقت . . .

قالت : قل لاصدقائك اذن ان يحذروا ما وقعت فيه . قل لهم ان فتاة مجربة قد اصطدمت بمئات المآسى فى حياتها القصيرة من هذا النوع ومن هذا القبيل : ما دخلت امراة بين اخ واخ ، او بين قريب وقريب . او بين صديق وصديق ، الا افسدت عدلا او ظلما بين الاخ واخيه . والقريب وقريبه ، والصديق وصديقه . . .

« المباذل من اصولها التستر فلا تعلنوا عنها ولا توجدوا لها شهود العيان . . . »

قال لها : قبلة اعجاب ! . . .

قالت : خذها فلعل فيها شيئا من النبل والشرف وسط هذه الادران . . .

* * *

وفى ليلة اخرى طلبت «ثروت» الى صديقها الاستاذ أن يزورها نهارا . واختارت أن تكون المقابلة وقت القيلولة أو قبل الغروب .

فلما شرع دم الغيرة فى الصعود الى شفتيه وعينيه وصدغيه لطمه على وجهه لطمة طيبة ساذجة وقال :

« اسمع يا صبى فلسفة الليل . الليل من شأنه التجمل والتزين والتصنع والشراب وحب الظهور فانت لا تظفر بحقيقة من تحب ليلا وانما تظفر بحقيقتها نهارا . الليل حياة مزخرفة مصنعة ، يودع فيه أمثالنا وأمثالكم حياة الجد والتفكير والتبصر ويهيمون فى عالم هو أقرب لعوالم المسلوع منه لعوالم الحقيقة . نحن وانتم نتفكر فى الليل ونسفر فى النهار . فان شئت أن تعرف من أنا وان أعرف من أنت فواجهنى فى النور وحذار حذار ان تواجهنى فى الظلام ! »

قال : لك هذا ...

قالت : اذن الى اللقاء فى حماية الشمس ! ...

* * *

خرج الاستاذ بنظارته ، وياقته الامريكية ، وعصاه ، يهتز بغرور ويقول لنفسه : لقد أحبتنى الفتاة . ومن حيث انها أحبتنى فيجب أن أفكر فى خيرها جديا ..

« ومن حيث أنها فى هذا الوسط فيجب انقاذها ..

واذ وصل الى هذه النقطة خطر له فجاة خاطر أسود فتوقف عن السير وقد امتزن أعصابه وأخذ يتمتم كالمحموم :

« لعلها ابتكرت حكاية النهار لتتخلص منى فى الليل ! ..

« ولعل العاشق ذا الخطوة هو بطل الظلام ! ...

وتقهقر خطوتين أو ثلاث خطوات على نية العودة اليها « لاجراء التحقيق » ولكنه عدل واستمر الى مسكنه وقد استولى عليه سوء الظن واخذ يناجى فراسته بخليط من المتناقضات ؟ فتارة هى سافلة منحطة ، وتارة هى تعسة كسيرة الجناح ، وحينا هى مخادعة محتالة ، وأحيانا هى مجنونة طائشة ، ومرة أخرى هى « بنت الهوى » ولا أمان لبنات الهوى ، ومرة أخرى هى فريسة القضاء والقدر والحظ المنكود ...

وخلع ملابسه حيث كانت الساعة العاشرة وبدا النوم يلاعب أجفانه فى الساعة الثالثة صباحا

ولا بد أن القارىء قد مرت عليه تجارب كهذه ، فلا داعى لنذكر سخافات هواجس الارق وكشكول الخيال العجيب فى مثل هذه الساعات . فلنترك الاستاذ يقضى ساعات النوم القليلة قبل أن يحمل

محفظته الى المحكمة ولنتكلم عنه فقد نسينا أن نقدمه على حقيقته للقراء ..

* * *

يذكرون عنه فى طفولته منذ عهد الولادة الى عهد الفطام انه كان لا يعرف البكاء . وكان ترتيبه الثالث عند ما ولد ، فلما ترعرع قليلا كان فريسة أخويه الكبيرين ولا تزال فى جسمه آثار اللطم والضرب والعاهات الصغيرة التى تخلفها عادة مشاجرات الاولاد . ولم يتمم الولد الصغير بحنين خاص أو عطف خاص أو حب خاص . بل كان فى منزل أبويه «شيئا» لا بد من تربيته والسلام

والاسرة من بيت كبير وعيلة ضخمة الحسب عتيدة النسب . وكان من عادات الاسر الريفية فى ذلك الوقت المأسوف عليه ان ترسل أولادها لمدارس القاهرة مستقرة فى الريف مسقط الرأس ومصدر الرزق وعماد العصبية والحيثية . كانت الاسر فى ذلك الوقت المأسوف عليه لا تعرف الانتقال ، والجسر ، وموسم الحصاد وجمع القطن ، ولا تعيش الا مع اتباعها من الفلاحين الزارعين .

وكان الخير كثيرا لم تبدده كهرباء العواصم ولا ليلها الساهرة ولا سهراتها الزاهرة ولا مدنيتها الساخرة الفاجرة . كان الاولاد فى مدارس العاصمة يعيشون وحدهم عيشة استقلالية علمية لا يفسدها الدلال على الام ولا التحنى على الاب الضعيف . وكانت عيشة من طبيعتها ان تكون خشنة غير ناعمة . واكثر ما يفسد الشبان فى مستهل حياتهم ان تلحظهم النعومة بعناصرها المختلفة ، نعومة الامهات ، ونعومة الآباء . ونعومة الملبس ، ونعومة المأكل ، ونعومة المصروف الوفير .

كان الفتى بطل هذا الاستعراض يعيش مع اخويه كعيشة الجنود فى الثكنات مع الفارق . وكان والد الثلاثة شديد الرقابة يلحظ أولاده فى الشهر مرتين او ثلاث مرات . فيقوم بواجب الحنو وواجب الاعداد . ومن حسن حظ هذه الفرقة الصغيرة من تلاميذ المدارس ان قائدهم وعم اخوهم الاكبر كان قدوة كطالب للتعليم . دقيقا فى مواظبته وفى معاملته . والعجيب فى مشاهدات هذه الحياة أن الاخ الاكبر « كالاصل » تطابقه النسخ المطبوعة على غراره . فان كان فاسدا تبعه اخوته فى الفساد . وان كان صالحا تبعه اخوته فى الصلاح .

والخلاصة أن ولدنا الصغير نشأ نشأة مدرسية «مضبوطة» من كل الوجوه . وكانت حلقات دراسته حلقات نجاح بارز أسمى بكثير من مرتبة « العادى » وأقرب بكثير الى مرتبة النبوغ ...

غير أن الأخ الاكبر رغم عبقريته كتلميذ وكطالب كان فيما بعد قدوة غير حسنة فى النسائيات . وهذا هو السر فى ان أساتذنا حين ترك المدرسة عدا عدو خيل السباق الى المنزل نمرة ١٩ فى « البنسيون » الذى لم اشأ ان أسميه ...

* * *

مادمنا قد عدنا الى ذكر المنزل نمرة ١٩ فلنستأنف أخبار مقابلات « النهار » فيه ...

الساعة تدق الثالثة بعد الظهر

والاستاذ فى محل يلزم نهائيا فى شراء بعض الحلوى يحملها هدية متواضعة لصديقة النهار . صديقة الليلة او قبل الغروب!

وها هو يسرع بحمله الخفيف الى دار الحبيب . فاذا ما وصل لباب المسكن دق دقة أنيقة فانفتح الباب ...

السكون حقيقة مخيم والشمس ترسل اشعتها الى داخل الغرف ، وهذه «ثروت» تستقبل صديقها باسمة وتبادر فتأخذ هدية العاشق وتعطيه الثمن قبلة ... ثم تلتفت الى الشمس ضاحكة وهى تقول : الشمس مطهرة يا أستاذ واشعتها تقتل الجراثيم

واذ تدخل غرفتها وتغلق وراءها الباب ترتمى على سريرها وتشير اليه بالجلوس على كرسى بجوار السرير ...

هل وصفت لك هذه الفتاة أيها القارىء ؟

أنها سمراء اللون . والسمرة تختلط بقليل من الاصفرار الوديع . شعرها الاسود الكثيف النامى الطويل تترك له حريته فيتدلى حيث يشاء بغير نظام . .

وجهها دقيق أنيق التقاطيع ترتسم عليه الطفولة والسذاجة فصيح فى تحديد السن الصغيرة بغير الرجوع الى شهادة الميلاد . .

جسمها يستطاع حمله بسهولة وبغير عناء . .

أما عيناها ففيهما كل السحر وكل الجاذبية . لا أستطيع أن أصفهما تماما وانما أقول بايجاز انهما من النوع « الفزاز » ومن النوع الشفاف الذى يفضح ماوراءه وينم عما خلفه من النوع الذى يكتب ويقرأ وينطق بغير مداد وبغير لسان .

والاستاذ « شكرى .. » له فى العيون قصائد فهو خبير بالعيون ..
والفتاة على العموم صغيرة ، طفلة ، شىء يود العاشق أن يأكله ..
وبين ضفتى الشعر تبرز خصلة ثائرة عصبية لا تستقر على قرار .
فهى دائبة على مداعبة الجبهة بقوامها والعينين بظرفها . ورأس الفتاة يعانى من أحوالها الصبيانية كثيرا ، فهو دائما أبدا متحرك حركة عصبية ليحول بين خصلة الشعر والجبهة والعينين ..

هذه المخلوقة الغريبة تستقبل الاستاذ الولهان وعليها قميص عادى من نوع ما يرتديه الجنس اللطيف لنفسه ، وحده ، لا المعجبين ولا للعشاق ..

وقدماها هاتان عاريتان . وهذه البودرة وهذا الاحمر لم يقوما بواجب استقبال الضيف العزيز .

يستعرض الشاب هذه المظاهر فى نفسه وقد استلقت هى على الوسادة وسبحت فى جو الافكار .

وطالت لحظة السكوت فحدق الاستاذ فى عينيها واذا به يظفر بدمعة ! ..

— تبكين ؟ ..

— ... ...

— ثروت ! تبكين ؟ !

هذه دمعة أخرى . وهذه ثالثة ثم هى تخفى وجهها بين الوسادتين فيقترب بيديه نحو وجهها فيلمس ماء الدموع !

والشاب عواطفى فهو يطبع على ثغرها المبلل قبلة ولا يتمالك أن يحكم قلبه الطيب فتتساقط على وجهها من عينيه قطرات الدموع .. واذ تحس الفتاة دموع الفتى تنهض مأخوذة وتهتف بصوت خافت :

— تبكى ؟ !

فيقول : نعم !

— ومن اجلى ؟

فيقول : نعم !

— ومن غير أن تعلم لم بكائى ؟

فيقول : نعم !

فتحدق آسفة ثم تقول : يالك من تعس ! !

ثم تتناول منديلها فتمسح دموعه بعطف وأسى

ثم بغتة تستوى جالسة فى سريرها وتحدجه بنظرة ثائرة ثم تشرع فى هذه الاسئلة :

ـ ما اسمى ؟

ـ ثروت ..

ـ كذب !... ماجنسيتى ؟

ـ مصرية ...

ـ كذب !...

وتمر فترة قصيرة من سكوت فى نظر الفتى طويل ..

* * *

وتقفز الفتاة من سريرها وتتجه نحو الدولاب فتخرج ملفا فيه أوراق . ثم تعود الى سريرها وتخرج صورا فتوغرافية تحدق فيها ثم تعرضها عليه : «وهذه صورة أبى . وهذه صورة أمى .. وهذه صور اخوتى .. وهذه صورة منزلنا فى « أرمينيا »

ويصيح « شكرى » بدهشة قائلا : « ارمينيا »

فتضحك ضحكة عنيفة وتقول: نعم ارمينيا . ألم تفهم للآن انى ارمنية » ؟...

فيتمتم هامسا : ثروت !..

فتقول . ثروت !..

ثم تجهش بالبكاء وقد قبضت على ملف الاوراق ...

ويتنابها اذ ذاك حركة تشنجية ثم يستولى عليها فجأة طارئ جنونى فتطوق بذراعيها عنق «شكرى» بشدة وقوة ثم تصيح فزعة مأخوذة وهى ترتعد ارتعادا واضحا : انقذنى من الوحوش .. انهم ذبحوه !.. أتوسل اليك . أنقذنى . جاء دورى . احمنى من السكين !

وتظل عالقة بعنقه والفتى قد رنبك ارتباكا ظاهرا فان تطوراتها السريعة المتتابعة لم تترك له الوقت الضرورى لاستعادة رزانته . وانه يشعر بالبرودة وبالدموع وبالهيام لايملك الا ان يبكى هو أيضا . ثم كان الفتاة قد تعبت من جراء هذه الثورة العصبية والجسمية والذهنية . فهى تستكين وتضعف وتلقى برأسها على صدره وتغمض عينيها ويزورها لعاس غريب عجيب ...

* * *

فى مثل هذه المواقف الساذجة التى ليس لها مقدمات يشعر

الرجل منا بشعور الاطفال . فى مثل هذه المواقف يتصل الرجل منا بالله وبالقدر فيستسلم !..

وشاب « كشكرى » حديث العهد بالدنيا العملية ، قليل الخبرة بمآسى هذا الصنف من مخلوقات الله . لم يفعل شيئا .. يحدق ويقبل ، ويقبل ويحدق .. وظلت هذه مهمته حتى أخذت الفتاة تستيقظ أو تفيق ، ثم «غادرت» صدره الى سريرها فأسرع الى « الكولونيا » وأخذ يدنيها من فمها ويدلك وجهها وذراعيها حتى نظرت اليه نظرة هادئة وقالت : أشكرك ..

قال لها : كيف حالك الان .؟

قالت : أحسن ..

قال : أتحتاجين الى طبيب ؟ ..

قالت : مطلقا .. كم الساعة ؟

قال : السادسة ...

قالت : اذن هيا . أسرع الى المكتب وأد واجبك وعد الى فى القيلولة أو قبيل الغروب ..

قال : يستحيل على أن اتركك على هذا الحال ..

قالت : أفعل ما أقوله ولا تناقش . ان حملى ثقيل . والمرأة التى يضحى لها الرجل من عمله وواجبه امرأة ان أحبت منه هذا العمل فى البداية احتقرته فى النهاية ... دعنى حالا . اننى أريد أن أعد عدتى لليل فاذهب ...

قال : اهذه حقا ارادتك .؟

قالت : نعم وبلا تردد .

انما لاتنس الغد وأعدك بأن أكون صافية المزاج ...

والشاب لم يفق بعد من الدهشة فلا يسعه الا الانصراف ولكنها تستوقفه باسمة وتقول :

— ان العشاق يقبلون عند الانصراف فأين قبلتك ؟

فيعود اليها « منفذا الاوامر » ثم ينسحب بسكون فتغلق الباب وراءه وهى تقول :

« مسكين ... »

تخيلات الطريق

هذا هو البحر الخضم الذى يرتطم بأمواجه وتياراته العشاق ، والبحر فيه الصخر واللؤلؤ وفيه اللذة والخطر ..

يقول الاستاذ لنفسه :

« أولا : البنت متعلمة ناضجة الحسن تفهم الحياة أكثر منى ..

« ثانيا : انها من بيت طيب بدليل الصور الفوتوغرافية لابيها ولامها ولاخوتها ولمنزلها ..

« ثالثا : انها لاتزال زهرة يانعة فلم تمكث طويلا فى أيدى قاطفى الزهور ..

« رابعا : انها ذات الام ودموع فلها سر أليم رهيب ..

« بناء عليه : هى جديرة بالحب رغم موقعها الجغرافى ، ورغم ظاهرها التعس .. »

وبعد أن يصل الاستاذ الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع يعود فيقول لنفسه :

« أولا : انها « ارمنية » ...

« ثانيا : انها سقطت والسلام

وكم سقطت أخت لها من قبل ، لها أب أرقى من أبيها وأم أفضل من أمها ، واخوة أنبل من اخوتها ومنزل أكرم من منزلها ..

« ثالثا : ان الدموع ثروة النساء ..

« رابعا : مالى أنا وللادوار العصبية ، والنوبات التشنجية ، وهذه الحالات الجنونية ..

« بناء عليه : هى غير جديرة بالحب ، وأنا جدير بأن أتفرغ لعملى وواجبى ومستقبلى .. »

واذ يصل الى هذه النتيجة بعد ذلك التسلسل المنطقى البديع تدركه سيارة من سيارات الاجرة وتقف فجأة وتطل منها « ثروت » فيرفع نظره اليها ببشاشة كبشاشة الاطفال فتقول له : كنت ذاهبة اليك فى المكتب لاعتذر اليك ولاكرر شكرى ولاذكرك بباكر فى القيلولة أو قبل الغروب فلا تنس ...

واذ يحاول الرد عليها يجدها قد غابت بسرعة عن ناظريه .. وتزول من خاطره النتيجة الثانية بأسبابها وحيثياتها وتستقر الاولى فى الذهن ، وفى القلب ..

يستولى عليها طارىء جنونى فتطوق عنق شكرى بشدة وقوة
وتصيح : انقذنى من الوحوش ... انهم ذبحوه ...

في مكتب أحد كبار المحامين يشتغل « المتر شكري » كمحام تحت التمرين ، وصاحب المكتب محام بارع ليس فيه الا عيب واحد ، انه رجل كما يقول العامة « دغري » ... ولهذا كان صنف النساء من الزبائن لا يتمتع بالدلال اللازم في المكتب ، ولكن من عهد أن اشتغل به الاستاذ شكري المحامي الناشيء « المدرج » اختص بقضايا النساء وبمقابلة النساء ...

والمكتب له زبائن من كل الطبقات ، وبالاخص الطبقات الراقية ، وعلى هذا كان المحصول النسائي الراقي وفيرا ، من كل سن ومن كل فن .. والاستاذ شكري يتأثر بالقدوة الا عندما تخالف سليقته وطبيعته ، فهو أيضا « دغري » في عمله كاستاذه الكبير ، يؤديه أكمل الاداء ، ولكنه كان ظريفا خلابا مع السيدات في المكتب بحكم سليقته وطبيعته ، وكان سعره في هذه السوق رائجا ...

وكان من الممكن أن تنشأ عواطف وأن تتمكن عواطف ، وكان من الممكن ان يتخير المحامي الناشيء حبا راقيا ، أو زواجا راقيا ، ولكنه كان أسير الفتاة الفاطنة في المنزل نمرة ١٩ .. ومن هنا تعرف شيئا من خلال وغريزة هذا المخلوق الغريب ، وأزيدك بيانا فاقول ان الشاب ديمقراطي متطرف ، وستري في الحلقات التالية كيف تكونت عقيدته السياسية ضد الحكم وضد الحكومة وضد الاعتدال وكيف لعب دورا له خطره في فترة وجيزة في خضم الحياة العامة

اذن كانت « ثروت » الساقطة فوق الجميع ، فوق الجمال الفاتن ، فوق الطهر المفروض ، فوق الحسب والنسب ، فوق الثروة والجاه ، فوق حاضر الشباب ومستقبله .

وأنت اذا استطعت أن تناجي خيلته عن السر في هذا الشذوذ وفي هذا التعصب لاجابتك خيلته اجابة حازمة جازمة : انه من أجل الدموع ومن أجل الالام ..

والشاب رغم مزاياه النفسية الروحية من أسرة كبيرة اسمها وحده رأس مال كبير ، ولكنه رغم ذلك كان بطبعه عدوا للارستقراطية ، وعدوا للنعيم ، وصديقا وفيا للبؤس وللشقاء ..

شئت أن تقبل هذا أم لم تقبله فنحن لا ندافع عن الفتى ولا نرسم لك المثل الاعلى مستمدا من شخصيته . وانما نرصد الواقع

ونحلل ناحية من نواحي مخلوق من مخلوقات الله ..

وها هو يستقبل في غرفة عمله بالمكتب نماذج الجمل ، ونماذج الحرير الناعم ، ونماذج الماس الخاطف للابصار ، ونماذج التهذيب والثقافة النسائية ؛ ولكنه رغم كل هذه المغريات والمحرضات لا ينسى انموذجه الوحيد : قاطنة المنزل نمرة ١٩

مثل هذه الحالة العقلية الشاذة يزيدها شذوذا الاعتداد بالنفس . ومحامينا الناشيء كان معتدا بنفسه - لدرجة تقرب من درجة الغرور . فكان من المستحيل ان تضمن له الشفاء . وكان من المحتم ان تتركه لمشيئة الاقدار

* * *

لاتتعجل تفاصيل المقابلات النهارية . فقد وعدت الفتاة الغامضة صديقها في اليوم التالي ان تكون صافية المزاج . وقد برت بوعدها فكانت مقابلة ثم كانت مقابلات . ولا يعنينا ان ندون هنا التافه من امرها وأمره وانما يعنينا أن نذكرك بتلك المفاجأة الحادة التي بدأت بدور عصبي عنيف ثم انتهت بغفوة او اغماءة على الصدر . ولعلك تذكر ايها القارىء ان السبب الظاهر كان عرضها الصور الفوتوغرافية على صديقها وبالاخص عندما كشفت له الغطاء عن جنسيتها فعرف انها « أرمنية » . وعن اسمها فعرف انه ليس «ثروت» وقد فاتنا أن نذكر لك انها لفظت اسم « ثروت » في الوقت الذي كانت تخرج فيه من ملف اوراقها وتذكاراتها صورة فوتوغرافية لضابط وسيم جميل . وشلت النوبة العصبية يدها عن هذه الصورة الفوتوغرافية فبقيت في مكانها ثم كان ما كان ..

تاريخ ...

« ج . ابيكيان » سري من سراة الارمن في القسطنطينية . والارمن في استامبول لهم مكانة اظن ان دعامتها الاولى هي المال ثم الثقافة . وللرجل بنت وحيدة واخوة أشداء اقوياء بحسب والدهم وبحيثياتهم في المجتمع . والفتاة الوحيدة كانت مدللة ، عنى والدها بتعليمها وبالطواف بها في عواصم أوربا . وكان الرجل كثير الحب لها يصطحبها في غدواته وروحاته وزياراته . وكان لايغفل عن زيارة السفارات والقنصليات التركية في البلاد التي

يحل بها حسب العادة المتبعة والواجب المتبع . وفى « باريس» عرفت الاسرة بضابط تركى يغلب على الظن ان له اتصالا بدم مصرى . والسن تجذب اليها السن وخصوصا فى بلاد الغربة بين المواطنين . ونقول لك باختصار ان نوعا من العاطفة « الطفلية» الابجدية نشأ بين الفتى التركى والفتاة الارمنية . والفتيات الصغيرة من كل جنس ومن كل لون ومن كل بيئة حين تتعلم فى كتيب الحب لاول مرة ألفه ، وياءه وتاءه تحتفر هذه الاحرف فى قلبها مخبأها فيختلط بها لحم القلب ودمه حتى تصبح جزءا طبيعيا من اجزائه . الم تلعب فى نشأتك مع صبية صغيرة لعبا من العاب الاطفال فى شوارع الحى وحاراته ثم نبت بينك وبين الصبية نبات صغير ؟ سمه ماشئت ان تسميه : صداقة . ميلا . استلطافا . عشرة . . ثم تركت الحى صبيا وافترقتما ثم مرت الايام والشهور والسنون ثم مر جيل ثم شاءت صدف الاقدار ان تجمع بينكما فى تلفون ، أو فى طريق ، أو فى مكان وقد كبرتما وخبرتما الدنيا ولكل منكما تاريخ ؟

الم يحصل لك هذا ؟ ثم الم تشعر عند المقابلة ان الذكريات تدفع بالذكريات . وان ذكرى الصبى تكشف رويدا رويدا عن النبات الصغير فاذا به ينمو ويترعرع ويشتد فى لحظة . ثم اذا بثمرته تصعد من القلب الى الشفتين فترتسم قبلة !! . ثم اذا بالقبلة تلد عاطفة . ثم اذا بالعاطفة تلد حبا !!

هذا ما اسميه الحب المبعوث . ثم من العدل ان نعترف بأن حب الصغار هو أرقى أنواع الحب واصدق انواع الحب وانبل انواع الحب ! . .

ولم تكن فتاتنا الارمنية ولا صديقها التركى صغيرين لحد التصوير الذى صورته لك فى استشهادى . وانما اود ان أقول ان الحب بينهما طرق الباب فى «باريس» ثم مرت الايام والشهور فلما تلاقيا فى «الاستانة» . انفتح الباب واستقبل الضيف العزيز بكل ترحاب وبكل سرور . .

***

وشهدت متنزهات «استامبول» وفردوس استامبول وجنان استامبول مشاهد هيام تستحق التحليل والتسجيل . ولكنى اخشى ان ينسى القراء بطلهم المصرى فى هذه القصة فأنا استميحهم عذرا وامر على الحوادث مرا سريعا . .

دق ناقوس الدمار والخراب فى « تركيا » وانفجرت قنبلة الرعب والذعر فاذا بها تعلن اشتراكها فى الجريمة الانسانية الكبرى : الحرب العظمى ! . .

لم تكن علاقة الفتاة بالفتى مهددة فقط بتنافر الدم ، وتناقض الدين . ولم تكن مشكلة الارتباط الشرعى الطاهر بينهما هى مشكلة هذين العنصرين ، فهما من الذين يرون أن الحب هو الدم وهو الجنسية وهو الدين . وانما كانت النكبة النكباء انها أرمنية وهو تركى ! . . .

والعداوة بين العنصرين قديمة التاريخ . . .

وزادتها الحرب تمكنا وتأصلا فأخذت بالفعل مظهرا من مظاهر سفك الدماء . . .

وحين انذر الفتى الضابط بالاستعداد لتلبية نداء الوطن فى مختلف الميادين . وحين تحقق لديه ان ساعة الفراق أو شكت ان تدق دقاتها الأليمة . ارتفع فى مجرى قلبه وقلب صديقته منسوب الحب وفاض . والحب من شانه الشجاعة والاستهتار ومن شانه رغم كل احتياط ان يسفر وان يتجلى . . .

وكشفت العين الارمنية الغدارة الجبارة المطايرة الشرر الحاقدة ملتقى العاشقين فلم تغمض الجفن بل اندلع منها لهيب النار . . .

وفى عصر من « عصارى » اللقاء وقد اخذ قرص الشمس يودع النهار هرولت الفتاة الى مكان اللقاء فى الضواحى الحنونة الحساسة التى تشمل العشاق بحمايتها . وتحول بينهم وبين الانظار . . . هرولت وكانت قد اعتادت ان تظفر بصديقها فى الانتظار . فراعها اول ماراعها انه ليس هناك . . . هتفت فلم يهتف احد . . . وتوارى قرص الشمس فقصدت الى شجرة اعتادت أن تركن الى جذعها هى والصديق المتخلف . فاذا بها تصطدم بشىء فتسقط على وجهها . ولكن لم تلمس شفتاها الارض وانما لمستا . . . لمستا شفتى الضابط المذبوح !

وكانت قبلة الوداع ممزوجة بالدم الاحمر القانى ومصحوبة بصرخة هى أشقى ماعرف التاريخ .

***

فى الغرفة عينها
وفى القيلولة وقبل الغروب

وقد جلست الفتاة على ركبتي الاستاذ وطوقت عنقه بذراعيها تبكي بكاء مرا هادئا ذليلا وقد حرقت أنفاسها وجهه بنارها وسعيرها .

كانت تروى له الراقعة التي رويناها لك من أول «ج. ابيكيان» حتى قبلة الوداع

وكانت دموعه هو تجارى دموعها هي

وخيم سكون عميق

وقطع الاستاذ السكون بقوله: كفى وحسبك !

قالت : وماذا بقى ؟ قال : لا شيء

قالت : أعرفت من كانت الفتاة الارمنية ؟

قال : لعلها أنت ! قالت نعم !

قال : ومن كان الضابط المسكين ؟

قالت : كان «ثروت»

هنا فهم الاستاذ انها لم تحمل من ذكريات الذبيح الا رسمه واسمه ! ..

وهنا أدرك لم انتهت مأساة التشنج الاولى في أول مقابلة بقولها : «انهم ذبحوه . جاء دوري احمني من السكين !»

قال وقد لمعت عيناه لمعة البطولة والمروءة « هل لاتزال تطاردك السكين ؟

قالت : بالله لا تذكرني بتاريخ المطاردة وأهوالها وشقائها . كانت نهايتها هذه البؤرة وهذه المقبرة !

قال : ان في مجال الاصلاح لمتسعا للجميع ؟ ..

قالت : هيهات ! ..

قال : عديني .

قالت : اني لا أعد . اني نذرت نفسي للشقاء وللدموع ! ..

قال : اني أعشق دموعك . فهيا معا نستروح في الهواء الطلق ونحاول النسيان

* * *

وكانت نزهة مسائية لعب أكثر أدوارها الصمت الطويل والتفكير الطويل ..

وامتازت بظاهرة ادنى وصفها أنها عفيفة

ولعل الذكريات الاليمة والحوادث العنيفة ، والموقف الجدى الذى تمخضت عنه هذه الذكريات والحوادث — لعل هذه العناصر

النلاتة قد رجعت بالفتى والفتاة الى العهد العذرى الخيالى للبوى.

ونحن الان فى أواخر سنة ١٩١٨

والقاهرة وضواحيها مزدحمة بالعساكر الانكليزيين والاوستراليين وغريب أن يردد ذكرهم فى هذه اللحظة

سألوا «ثروت» المسكينة فهو سبب هذه المفارقات ..

سألوها : لماذا تضطرب حين تلمح وجها «اوستراليا» ؟

فهى تجادل فجاة وتلتصق بصديقتها التصاقا وعيناها زاغتان فزعتان ..

سألوها : لماذا تقترح على صديقتها الحاح أن يبعد بها عن وجوه وسحن «الاوستراليين» ؟

لم يجد الاستاذ فى أول الامر ما يلفت النظر من هذه الناحية .

فهو نفسه عانى كثيرا من رذالة الاستراليين وتحكك الاوستراليين وتعدى «الاوستراليين» ولكن أحس «الرجل» بالاشمئزاز منهم «فالمرأة» أولى بهذا الاحساس ..

ولكنها بالغت فى الجزع . فقال لها :

— انكرهين الاستراليين ؟

قالت : أخشاهم ..

قال : ولهذا الحد؟

قالت : نعم ..

قال : ولم ؟ خبرينى !

قالت : لم يأن الاوان ..

* * *

عند ما يكشف الرجل العاشق فى المرأة المعشوقة — وخصوصا من هذا الصنف — بطريق الصدفة أو بحكم المعاشرة الطويلة ، خلة نبيلة أو تاريخا حزينا ، أو ناحية مظلمة ، تنبعث من أقصى نفسه عواطف طيبة فياضة ..

«شكرى» محا من ذهنه نهائيا صورة المرأة قاطنة «البنسيون» بالمنزل رقم ١٩

محا من ذهنه نهائيا صورة «الليل» وانطبعت فيه صورة النهار : « فى القيلولة أو قبل الغروب» ..

أو قل باختصار محا من ذهنه صورة «ثروت» وأحل محلها صورة الفتاة الارمنية كريمة ج . ابيكيان»

وخريج المدرسة في مستهل حياته «التجريبية» في هذه الدنيا المتلاطمة الامواج يعتريه ويعتري زملاءه وأقرانه في السن وفي التجربة نوع من حمى الخيال والفلسفة الساذجة والمشاعر الانسانية .

هذا «المصلح الاجتماعي» الصغير توكل على الله وصمم أن ينشل الفتاة الضائعة ..

ها هو يقرأ معها الجرائد والمجلات والكتب ويناقشها في علم النفس وفي السياسة وينتقل بها من بحث فني ، الى بحث صناعي ، الى بحث أدبي . فاذا سألته : لم هذا العناء لا أجابك : أريد أن أبعث استعدادها من القبر الذي دفن فيه ..

وها هو يزج بها في اوساط راقية فيطوف معها الحفلات الخيرية والاجتماعية الادبية العلمية . فاذا سألته : ماذا ترمي بهذا ؟؟ أجابك :

ـ اريد أن اذكرها بوسطها الماضي وابعدها عن وسطها الحاضر ..

ثم هاهو في ذات يوم من الايام يفاجئها بهذا الاقتراح الطريف : ان تمضي معه اسبوعا في الريف ؟

في الريف

من العدل أن نقرر أن الفتى نجح نجاحا ما في اساليبه الاصلاحية هذه . لقد اخذ رونق الفتاة « النظيفة » يسطع على وجهها واساريرها واخذ يسود حركاتها واحوالها واخذ يطارد ظلام « البنسيون » الذي لم اشأ ان اسميه ..

وفي عزبة من عزب الريف نزل الصديقان في ضيافة احد اقارب الاستاذ الاعزب . فترك لهما العزبة لينعما منفردين لا يعكر صفو وحدتهما مخلوق ..

وياللدهشة ؟!

ان « ثروت » الماجنة طريدة الليلة ربة منزل لا تجارى : تجيد الطهي والكي وقد حملت ادواتها الصغيرة ونسيجها تصنع « جرسي » لصديقها العزيز ..

وها هي تجمع نساء القرية فتجري عليهن الاحسان . وقد

سحرتهن سحرا اخاذا بظرفها ودعتها . فهن عند اللجاج لايقسمن الا باسمها ولا يحتكمن الا لحكمها وامرها ..

وها قد تطورت « ثروت » الماجنة فهي في الصباح الندى . وهي في الليل البلبل الغرد . وهي النشيطة المنعشة الصحيحة وهي في أسبوع الريف رمز السعادة في كل حال !

ولما دنا موعد الرحيل بكت البكاء الامر وكانت ساعة السفر ساعة النواح . وقد تظاهر نساء القرية يودعنها بالدموع وبالدعوات الطيبات ؟ ..

وفي القطار همس « شكرى » في أذنها :

— أسعيدة أنت ؟

— .. لدرجة الخوف . دعني أشكرك ؟

ثم أخذت تقبل يديه من شدة السرور وتقاطرت من عينيها بعض الدموع !

ربما ...

ان ذكرى الرحلة الريفية كانت أبدا منطبعة في ذهن هذه المرأة الصغيرة . وكان يلذ لصديقنا « شكرى » أن يسمع عبارات الاعجاب برحلة الريف من فمها الانيق . ولكن المسألة لم تكن في نظر « ثروت » مسألة ذكرى واعجاب فقط ، بل كانت ابعد مرمى ، وأدق مغزى ...

كانت تتكلم عن الريف بحماسة غامضة . وكانت تسائله عن عزبة والده في الريف بنزق وفرح ثم تعود وتغمض عين الاسى بذل ومسكنة وحسرة ؟ ؟

من العسير على الكاتب القدير ان يحلل هذا الطائف الطارىء على خاطر الفتاة . وبقدر ما تملك كفاءتنا الكتابية في التحليل نحاول هنا ان نفرض عدة فروض : هل كانت الفتاة ترهب شيئا رهيبا في القاهرة فهي تذكر الريف وتحن الى الريف ؟ ربما ...

هل بعث الريف من ماضيها شخصية الفتاة الصغيرة الكريمة النقية العاشقة فودت ان تعود سيرتها الاولى ووجدت من نفسها كريمة « ج . ابيكبان » ومن الاستاذ الضابط ثروت ؟ ! ربما ...

هل خطر لها خاطر الزواج من « شكرى » ولكنها استدركت

فقاست البعد بين مستواه الحاضر ومستواها الحاضر ؟ ولمست بيدها الباب الفولاذى الضخم الذى يحجب بين دنياها المفتوحة وبيته المصون المحروس ؟ ربما . .

من اتعس الخواطر التى تمر على أذهان هذا الصنف من فرائس الحياة ان يفكرن فى الزواج من عاشق أو من محب ولهان . ولذلك يمر الخاطر بسرعة البرق وتمحوه آية الليل ؟ . . .

آية الليل ! ؟

آية الليل عند صاحبتنا « ثروت » وقد ان اوان الافصاح والايضاح ؛ كان ضابطا استراليا خشنا يقتحم بابها لاقى « القيارلة او قبل الغروب » كما كان يفعل « المتر شكرى » وانما فى الليل . .

و « شكرى » المحب الفيلسوف المصلح عاشق الدموع كان من صنف العشاق الذين يحترمون الخصوصيات ويقدسون الخصوصيات والذين يألفون ان يتجسسوا او يتحروا او يفاجئوا . وهذه ناحية من نواحى الحب تستحق هى الاخرى التحليل : ان العاشق الذى لايتجسس ولا يفاجىء ولايبحث لا يفعل ذلك من غفلة او نبل او كرم اخلاق ، وانما هو يشفق ان يبحث . . فيكتشف . . . فيتألم فيثور . . فتنقطع علاقة الحب ؟

لذلك هو يغمض العين متعمدا ؛ ويسد الاذن متعمدا . وان كان احساسه الحساس يقوم مقام العين والاذن سواء بسواء

حدس العاشق لا يخطىء . وانما قلبه الطيب الفياض بالحب يطغى على عقله وعلى بصره فهو يغفل او يتغافل . ويسمى او يتعامى . ويتعقد موقفه ويصعب ان كان عشقه من نوع هذا العشق . ولم يكن يملك بوسائله حقوق العشاق المستأثرين . . .

او بعبارة أصرح - هل يتولى « شكرى » الضعيف الموارد الانفاق ! ؟ لئن كان يفعل كان صاحب السلطان على كل النواحى وان كان لا يفعل فبأى حق يتلصص ؟

هذا هو العذاب بعينه : محب محبوب ولكن غير قادر !

اذن عليه ان يحسن الظن وان يقبل المبررات وهو صاغر ، فان ثارت كرامته ونخوته وجب عليه ان يكتم حبه ؛ وان يسحق قلبه ، وان ينسحب من الميدان

بطل الظلام ! . .

و « أروت » هـذه ماذا كانت مع بطل الظلام ؟

ظفر بها فى غير مصر فاحبها ومن حق كل مخلوق ان يحب . التقطها من البيئة شريدة ، طريدة ، منكوبة . فتلقفها بحمايته ورعايته . وطاف بها فى كل مكان به طاف . ووقعت فى مخالب المرض مرات فكافح بمروءته ونخوته مخالب المرض وانقذها مرات . وبكى لها وبكت له فأحبها عشقا ، واحبته وفاء . والبنت من اصل طيب فهى لاتغدر وهى لا تنكر للاوفياء . . .

حتى اذا هبطا مصر عاشرته وساكنته ، ولكنه انتدب لمهمة عسكرية فى غير مصر فودعها على ان يعود ، انتهت الحرب او لم تنته . فقرت بالمنزل رقم ١٩ فى مسكن انيق . . .

وبرز « شكرى » فى نهاية فترة الغياب فاحبته الفتاة ، ثم عاد الضابط الاوسترالى فوجدت نفسها بين نارين : نار الحب ، ونار الوفاء ! . .

افهمت كيف قسمت بينهما قسمة عادلة فحفظت لصاحبنا وقت القبلوله او قبل الغروب ، وحفظت لصاحبنا الاخر وقت الظلام ؟ . .

افهمت كيف كانت تفزع لرؤية الاوستراليين وذكرى الاوستراليين وكيف كانت تسأل : اتكرههم ؟ فتجيب : أخشاهم ؟

أفهمت كيف نمت برحلة الريف وسعدت برحلة الريف وكيف لمست بدل وانكسار الى امنية الاستقرار بالريف ؟

ويل المرأة الطيبة ان احبت غراما ـ واحبت اكراما . . .

ويلها ويلها ان اعملت لهذا قلبها ـ ولذاك ضميرها ووجدانها . . .

ويلها ويلها من معركة القلب الحساس ـ مع النفس الحساسة

أيهما تقتل : اهى العاطفة ـ ام الواجب ؟

أيهما تقصى : اهو المحبوب ـ ام المنقذ ؟

يقول بعض المتطرفين فى اصول الهوى ان الموقف لايحتمل التردد فالحب اقوى المشاعر . وهو يكتسح ماعداه ويتغلب على سواه ! . . .

وعندى ان البت برأى غير معصوم من الخطأ . عندى ان

المسئلة نسبية يرجع الحكم فيها الى استعداد المرأة وكمالها او نقصها ، وعند ما اقول الكمال او النقص انما احصره فى دائرة ضيقة . وفى المرأة الساقطة كمال وفيها نقص . فيها ناحية مرذولة يحكمها حكم سواها . وفيها ناحية طيبة ، جديرة بالاجلال على كل حال ...

المرأة فى هذا الموقف جد تواقة الى الابقاء على الخصمين المتنازعين والمغرمين المتنافسين . وهى وشأنها وسرها فى توزيع الحب على هذا والوفاء عمى ذاك ...

دعنى من الحكم العام الذى قد تراه والذى قد لا اراه . انى انتزك وانقذ نفسى من هذا الحكم النفسانى فاقول ان « ثروت » كانت عادلة ، فهى لا تود ان تضحى بهذا ولا تود ان تضحى بذاك ؟ !

ولكن ما العمل اذا كشف احد المتبارزين موقع خصمه ومزاحه ؟

ما العمل اذا تصادما وارتفع الستار ؟ ! . .

ما العمل اذا طلب اليها بلهجة الحزم والجزم أن تختار ؟

***

وقد تصادم العاشقان فوقعت الفتاة فى الفخ . .

وتخلى كل منهما عنها ...

وفترة تخلى العشاق فترة أليمة على العشاق وعلى المعشوقين ...

والفتاة فيها شىء من الكبرياء فصمدت للصدمة حتى تنكر وحتى تبت ؟

ومن حق هذا الضابط أن يثور ، فهو رجل بمعنى الكلمة ، ضحى لها وانفق عليها وحماها ورعاها . ففى الموقف عنصر عنيف من عناصر الجحود ...

وقلنا فيما مضى ان الحب هو حمى ، وان الحب هو جنون . وهل يرضيه أن يعلم بأن الفتاة لا تجحده ولا تتنكر له . مادامت لا تحبه ؟

والحب اثانى : يريد ان يستولى على القلب والجسم والعقل والذهن والنفس والحواس جميعا . ويتنفس ان يظفر بنصيب وان يظفر غيره بنصيب ...

الحب يمقت الشركة ويأباها . . .

ولئن قبل الشركة فأين تكون رجولته ؟

أضف الى عناصر هذه النار المشتعلة فى صدره أنه ضابط . أنه بجندى وعسكرى . ولرجال الجندية والعسكرية اعتزاز بالكرامة لا يدانيه اعتزاز . الشرف العسكرى عنصر يمتزج بكل دور من أدوار

حياتهم ، في ميادين الحرب كما في ميادين الحب ، اذن لابد من موقعة فاصلة فلننتظر كيف تكون . .

خذلان . . .

اما فتانا «شكري» فكانت صدمته لاتقل عن صدمة الضابط عنفاو قسوة ، هو يجهل التفاصيل ويعلم فقط انه كان مخدوعا وانها كانت ولا تزال تحب سواه

اذن واخجلتاه من زيارة القيلولة او قبل الغروب !

واخجلتاه من الدموع الجارية على وجهه وعلى صدره !

واخجلتاه من رحلة الريف وهناء رحلة الريف !

واخجلتاه من ذلك الخيال الراقي الذي رسمه في ذهنه للفتاة المتعبة !

ثم واحسرتاه على تفويته للفرص التي ولت وأدبرت . . .

واحسرتاه على أنه زل وسقط في أحضان فتاة ساقطة . . .

اذن سحقا للحب الراقي للحب الوضيع . . .

ولكنه يحب ! . . .

اذن فليفكر طويلا ، وليبك بكاء ممزوجا بالخجل من البكاء ! . . .

على انه وسط هذه اللمحات يراجع ضميره فيقول : لاشك انها تعسة منكوبة ، ولئن كانت تحب سواه فهل يمكن أن يكون الحب محل مؤاخذة أو يمكن أن يكون جرما وجريرة ؟ !

وبأي حق يطالبها بقلبها . وما هو الثمن الذي اداه ؟ !

إما يرضيه أنها ترتضيه ؟ . .

انها طريفة لطيفة لانكرهه ، وانها تسمح له بأن يتلقى الدموع وان يتلقى الاسرار ؟ !

ولكنه يحب !

والحب اناني . .

فلم تخدعه ، ولم تغرر به ، ولم تستهويه ؟ !

الانسحاب هو نعم الجواب . .

وليقنع بالتجربة الاولى في عالم الغرام . .

لياخذ منها عظة ودرسا . .

ولكن نقطة واحدة تمس رجولته ، منافسه من جيش الاحتلال أو من جنس جيش الاحتلال ، في الموقف عنصر من عناصر الجبن والتقهقر ، فتظن الفتاة ان الانسحاب هو بمثابة فرار ! ؟

لا !

اذن فليتطرز هذا الخذلان العواطف بالنعرة الوطنية السياسية ، وليبلغ الفتى بشره بذرة الثورة ضد غاصبى وطنه ، وغاصبى محبوبته ، ولتنبت هذه البذرة نباتها ، ولترسل شجرها بأغصان وفروع تصلح فيما بعد وقوداً ونارا ! ! !

***

ومرت أيام وليال والفتى يقتحم الاوساط السياسية فى بلده ، وكانت ثائرة لقضية الوطن ، وكان من فرط ثورته لا يروقه الاعتدال ولا اللين ولا المرونة ، بل كان داعية من دعاة التطرف الذين لقبهم مواطنوهم بالخياليين المجانين ! ! !

وكان استعداده الذى مهدنا له فى الفصول الاولى يناسبه هذا التطرف بعد هذه اللطمة ، بحيث كانت فتيلا اشعل القنبلة الدفينة فى أحشائه فانفجرت ودوت دويا . . .

واطلت سنة ١٩١٩ بوجهها اللعين على مصر البائسة ، وكانت قد اكتوت بنار السلطة العسكرية من مصادرة مواطنيه الآدميين وسوقهم قبل ذلك الى ميادين الردى ، ومن مصادرة أرزاقهم بأبخس الاثمان .

ووجد الفتى من هذا الخضم السياسى الذى غمر دماره من آلامه نوعا ما ، وان كانت فترات القيلولة او قبل الغروب تفترس قلبه كلما مرت الذكرى وتجلت الخواطر

هذه مواقف الثلاثة شرحناها وحللناها بايجاز وغموض

. . . . . .

. . . . . .

ترجيح ! . . .

فى الساعة السابعة من مساء يوم من أيام فبراير سنة ١٩١٩ دخل « عم عبد الله » فراش المكتب على الاستاذ « شكرى » فقال له : ان سيدة بالباب !

ورفع « شكرى » رأسه من الدوسيه الذى يحدق فيه واذن بالدخول بغير اكتراث

الزائرة فتاة شاحبة يلوح على وجهها شىء من الاصفرار . واصفرار الآلام او المرض نوع بديع من أنواع الجاذبية والجمال

تقدمت الزائرة بخطوات مضطربة مرتبكة ، فنهض الفتى مهتزا يستقبلها بأدب وشجن ثم همس قائلا :

— ثروت ؟
أجابت ببرود : هي أنا . . .
قال : تفضلي . . .
قالت : عندي حديث طويل أو قصير ، والمكتب لا يناسبه
قال بدهشة : أتخرج سويا ؟ !
قالت : ممكن
قال : أذن اجلسي وانتظري قليلا
وأتم « شكري » عمله ثم استأذن أستاذه وأشار اليها بأن تسبقه على الباب ثم لحق بها وركبا مركبة صامتين والسائق يسوق الى الامام وهو لا يسأل وهما لا يرشدان
وتنبهت الفتاة قبل أن ينبه الفتى فقالت : الى أين ؟
قال بضعف : الى حيث تشائين
قالت : اقترح أن نذهب الى حلوان
قال : أترك . . .
وأمر السائق بأن يتجه الى باب اللوق
وركبا القطار ووصلا الى حلوان وسارا على القدمين حتى ظفرا بمكان خال في قهوة خالية من الناس فجلسا
قالت بلهجة الجد : اني جئت انذرك :
فقال بلهجة التهكم : مشفقة أم كارهة ؟
قالت : بل مشفقة . . .
قال : على أم عليه ؟
قالت بلهجة صادقة صريحة : عليكما معا !
قال : أذن نحن شريكان ؟
قالت باللهجة عينها : نعم !
قال : أمقت الشركة ، وأرفض الانذار ! ! !

***

سكتت الفتاة هنيهة ثم قالت : أريد أن أشرب خمرا
قال : أن الخمر مفسدة
قالت : ولكنها عندي تبعث أصدق الاحساسات وأصدق الاقوال ، وأريد أن أفضي اليك باشياء صادقة ورهيبة !
قال : ليكن
وأمر لها بالشراب فشربت مثنى وثلاث ورباع . . .
قالت : أسقطت في نظرك نهائيا ؟

قال : لا ألومك . وانما سقطت انا في نظر نفسي

قالت : اذن انمحى كل تاريخي معك من ذهنك ؟

قال : ليست لي عليك حقوق . . .

هنا اعتدلت في جلستها والقت بالكوب الفارغ وقالت : اسمع يا « شكري » ! اتذكر جزعي من رؤية الاوستراليين ؟ الم اكرر قولي انني لا اكرههم بل اخشاهم ؟ !

قال : اذكر

قالت : اذن فاعلم انني جئت انذرك . انني أخشى عليك !

قال : اطمئني . لقد انسحبت فتمتعي

وكأنها اعتبرت هذه العبارة اهانة فانتصبت كاللبوة وزأرت : دنيء !! أظننت أنني جئت أستميحك عذرا لانني أحب وأرجو منك ان تخلي الطريق . دنيء ! !

قال مستخفا : اشكرك على هذه التحية

قالت : اذن لن يكون الحديث بيننا طويلا . كلمة واحدة او كلمتين : احذر الضابط !

قال : كم أود أن أكون أول ضحية . . .

قالت : وعلى مذبحي ؟

قال : كلا ! بل على مذبح بلادي !

قالت وقد أطلت من عينيها الذابلتين الدموع :

— أنا الساقطة في نظرك ونظره ونظر الناس ونظر أبوي وأخوتي وأسرتي وعشيرتي من قبل . لست آسف على شيء ، انما أنا امرأة عنصري نبيل . وقد جئت أؤدي واجبا فقد تكون هذه آخر مقابلة بيني وبينك . أحبك وأحب الرجل . أحبك ولم تقدم لي معونة ولم تبذل ولم تضح . وأحبه لانه فعل كل هذا . صدقت أم لم تصدق فلست أطمع في استئناف العلاقة ؛ وتستطيع أن تستنتج مع من قلبي ومع من ضميري ووجداني . وكم حاولت كبريائي أن تصدني عن هذه المقابلة وعن هذا التصريح ! . وقد نجحت مرارا ولكنها فشلت هذه المرة . لاني امرأة منحوسة ونحسي ينصب على رءوس عشاقي ولاني أخشى أن يجري عليك ما جرى على « ثروت » وأن أقبلك انت أيضا قبلة الوداع ! . . .

نطقت بهذه العبارات بروح وحماسة ؛ وهبطت هذه العبارات بردا وسلاما على قلب الفتى المتقد بالنار ، فهدأ واستراح وانتزع يدها وطبع عليها قبلة

والعشاق الاطفال يأسرهم بسرعة البرق الكلام اللين المصوغ في قالب الاعتذار او قالب الايضاح والبيان . وكان « شكرى » اراد ان يستمع بتفاصيل هذا النوع فكشفت له بتدفق عما بيناه . وانتهت المقابلة على احسن مايكون . وقد عاد بها الى القاهرة مزهوا فخورا لانه استعاد القلب واستعاد كرامة العشاق ! . . .

ولكن بقى فى الظلام شبح التهديد . اما هو فكان لا يابه ولا يكترث ، واما هى فكانت تحمله بالقبل المتوالية وتصف له وسائل التحصن والحذر وعيناها مفعمتان بالدموع !

سنسافر معا . . .

فى ساعة القيلولة او ساعة قبل الغروب دق جرس « البنسيون » فهرولت « ثروت » بنفسها الى الباب ظانة ان الزائر هو « شكرى » وما فتحت الباب حتى وجدت امامها الضابط !

حياها فردت التحية

واتجه الى غرفتها بدون استئذان كما اعتاد أن يتجه !

فسارت وراءه

قال لها : كيف حال المصرى ؟!

قالت : لم اره غير مرة واحدة

قال : وهل لاتزالين تحبينه ؟

اجابت : يكفيك ان اقول انني لا ازال احبك

قال : شكرا ، هونت على مهمتى !

قالت : اية مهمة ؟

قال : سنسافر معا بعد يومين اثنين !

قالت : الى اين ؟

قال : الى وطنى ، الى اوستراليا

قالت : اجاد انت ؟

قال : كل الجد !

وجمت ولكنها تمالكت ثم قالت : ولكن كيف استطيع ان اعد حوائجى فى هذا الوقت القصير ؟

قال : اما حوائجك فلا يحتاج اعدادها الى وقت طويل ، واما الباسبورت فدعى أمره لى

قالت : ولم هذا السفر المفاجىء ؟ .

قال : صدر الامر بتسريح الفرقة !
قالت : دعنى افكر
قال : أتترددين ؟
قالت : وأى غرابة فى هذا ؟ من مصر الى اوستراليا ؛ اليس الامر يحتاج للتفكير ؟
قال : عجيب ! ماكان عهدى بك ان تترددى . فيجب ان تبتى !
قالت : لن اسافر
قال : نهائيا ؟
قالت نهائيا
وبكت ، ولست ادرى ، اكان البكاء من اجله أم من اجل الموقف الدقيق والمأزق المحرج !
واشعل هو سيكارته ثم قال : اذن لنشرب ؟
وتناول اقداح الشراب سريعة متتابعة وهو يتأوه ويتأوى ويكتظم الغيظ ، وقد ثبت لديه أن «المصرى» هو العقبة الكؤود

***

واسترد الضابط توازنه واستعاد برودة ثم أخذ يكرر الطلب بكل انواع صيغه واساليبه ، من رجاء ، والحاح ، وتشدد ، وتوسل ، وتذكير . ولكنها كانت ابدا مصرة بكل انواع صيغ الاصرار واساليبه ، من ضعف ، واعتذار ، وشدة

ووجم الضابط وجمة طويلة ثم زفر زفرة طويلة ثم قال : ان السفر بعد باكر وباكر هو يوم الاعداد وهو يوم مشحون بالعمل ، لم يبق الا هذا المساء وهذا الليل ، فليكن مساء الوداع وليل الوداع . ويكفينى وقد رفضت رجائى ان امضيهما معك ولعل الايام المقبلة تجمع بيننا فيها . . .

وقامت « ثروت » فارتدت ملابسها وهى تعلم ان تمضية هذا الوقت مع الرجل الوفى المخلص هو واجب هين عادل .
وذهبا الى الجزيرة وقد ودعت الشمس الافق ، وابتدا الظلام يرسل ظلائعه على الدنيا المضيئة . . .

السفر ! . . .

كان الاستاذ «شكرى» فى اليوم التالى بالاسكندرية فى قضية ، وعاد بعد الظهر مضنى من وعثاء السفر ، فلما استراح قليلا حمل

محفظته وتوجه الى المكتب . ثم طلب فنجانا من القهوة وفتح جريدة « المقطم » كعادته ليقرأ أخبار المحليات . . .

وكان قد أمر الكتبة بأن يحضروا له بسرعة عمل الغد . وبينما هم منهمكون في تنفيذ أوامر الشاب المحبوب اذا بصرخة تدوي في ارجاء المكتب وتهز اركانه وقد صدرت من غرفته . . .

بادر الكتبة فزعين الى النجدة فوجدوا الفتى مغمى عليه وقد سقط من كرسيه وجريدة المقطم بجواره

استدعى الطبيب في الحال وعملت الاسعافات السريعة ، وكان له زميل من سنه يعرف من خصوصياته الشيء الكثير وقد لفتت نظره الجريدة فأخذها وقرأ فيها ما يأتي :

انتحار ضابط أوسترالي وقتل فتاة

« عثر البوليس أمس الاول اثناء تجوله في نواحي الزمالك بعد نادي الجزيرة البريطاني حوالي الساعة التاسعة بجثتي ضابط اوسترالي وفتاة عليهما مظهر المصريات ، وقد اخترق الرصاص قلبيهما فسقط صريعين وقد وجد خطاب بجانب الجثتين كتبه الضابط المنتحر وذكر فيه انه بسبب صدور الاوامر اليه بالعودة الى الوطن وعدم امكانه مخالفة هذه الاوامر ولانه يحب صديقته هذه فقد قرر ان ينتحر فأطلق عليها الرصاص اولا ثم أطلقه على نفسه . وانه يودع اصدقاءه واهله ويطلب الغفران من الله »

« أما الضابط فاسمه « جيمس ريد » كما ذكر في خطابه . واما الفتاة فاسمها « نروت » ويظهر انها اسم محرف

« وهكذا مصارع العشاق . . »

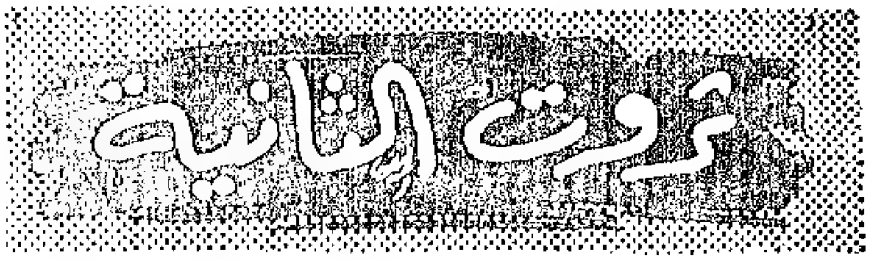

فى القاهرة ناد فخم للالعاب الرياضية كان ولا يزال ارقى النوادى الرياضية المصرية وسطا وحيثية . مؤسسوه كانوا فريقا من كبار الطبقة الارستقراطية المثقفة الموسرة . واعضاء لجنته العليا من الوزراء وأمثالهم

كان « شكرى » عضوا فى هذا النادى . وكان من غواة « كرة القدم » وفريق « كرة القدم » فى هذا النادى كان اقوى الفرق المعروفة ...

فى قطار الليل الذى يقوم من محطة العاصمة حوالى الساعة الثامنة مساء احتل فريق النادى مركبة من مركبات الدرجة الثانية ووجهته اسيوط لمباراة ناديها الرياضى . وشوهد بين أفراد الفريق المسافرين « شكرى »

ورحلات فرق الكرة فى النوادى والمدارس رحلات ممتعة حقا . هى عبارة عن ضحكات من القلب واغنى بعد ذلك من الوصف هى المرح وهى السعادة وهى الهناء وهى الطفولة الفتية بكل مافيها من سذاجة وصفاء وعدم شعور بالمسئولية ...

و« شكرى » كان الثرثار المبق الحاضر البديهة السريع النكتة ، وكان المورد العذب والمصدر العذب فى كل رحلة ...

ولكن ، يالخيبة الامل ؟!

كان هذه المرة جامدا كالحجر ، باردا كالثلج ، شاحبا شاردا كمدمنى المخدرات ...

وحاول اخوانه أن يحركوه بنكاتهم الطريفة ومجونهم البرىء فكان ينظر ولا يتحرك

قال الصديق نمرة ١ : انت جوعان ؟!

وقال الصديق نمرة ٢ : انت مفلس ؟!

وقال الصديق نمرة ٣ : انت قتلت قتيل ؟!

وانطلقت العبارة الاخيرة كالسهم أصابت فؤاده فصرخ صرخة داوية واردفها بلفظة فيها كل الوجيعة : نعم !!

***

صدق « شكرى » اذ صرخ وقال : نعم

ألم يكن هو القاتل حقا ؟!

لولا انه كان طارئا طرأ على حياة قاطنة القبر ما احتواها القبر !

كانت عادت الى أحضان صديقها ومنقذها فتبعته الى حيث شاء ، وتزوجته أو عاشرته كما يشاء ، وتمتعت بالحياة ولم يغيبها الظلام !

نعم ، كان هو القاتل لا القدر !

وما هو جزاء القاتل فى عرف العدل لا فى عرف القانون ؟ ماهو جزاء القاتل فى عرف الواجب لا فى عرف المسئولية الوضيعة ؟ ماهو جزاء القاتل فى عرف الحب الولهان لا فى عرف الحيوان ونصف الحيوان ؟!

أن يختفى من العالم وان يرقد بجوار الصحية ! طائعا مختارا يستصدر الحكم على نفسه من ضميره ، وعلى حياته من وجدانه ثم ينفذه بيديه فى روحه ، ثم ينتهى ان كان رجلا وكان شجاعا ..

وان « شكرى » لرجل ! وانه لشجاع ؟

اذن علام التردد ؟ وعلام الابطاء ؟

هذا القطار يسير بسرعة البرق ، وهذه النافذة يستطيع ان يقفز منها قفزة واحدة فيصل بالسلامة الى النهاية !

ولكن من يرقده بجوارها ؟ من يعلم بأمره وامرها ؟ من يضم عظامه الى عظامها ؟ من يشيعه الى قبرها ؟

فلينتظر قليلا ، حتى يكتب رسالته ، ويترك وصيته ...

***

ويفيق « شكرى » من نوبته الجنونية فيجد اخوانه حوله ذاهلين جزعين ، وقد اسمعوه بمالم يشعر به وبما لم يحسه ، فينبس متوسلا :

— دعونى أنم

ويصدق الاخوان هذه الدعوى الكاذبة فيتركونه وحده . ولو صدق لقال : دعونى أبك ... ...

الله ! . . .

« يارب ! . . . »

هتاف صدر من اعماق نفسه واهتز له كيانه الجسمي والذهني اي اهتزاز . وكانه تسمر بشيء من الراحة في هذه النجدة الربانية وفي هذا الملجأ العلوي الروحاني الخفي ، فاخذ يكرر الهتاف ويضغط بيديه على صدره وعلى قلبه وعلى راسه ضغطا عنيفا بقسوة وشدة ، فيصدر الهتاف بجرس صوتي مكتوم حزين تصحبه زفرة حارة تارة يتلقاها بيدين متناثرتي الاصابع على وجهه فترد النفس الناري الحامي عليه فاذا به كله متوقد باللهيب !

كان لهذا الهتاف اثر السحري على نفسه الثائرة المتمردة ، فهي تتراجع رويدا رويدا عن خاطر النافذة المفتوحة في القطار السريع وعن خاطر القفز منها للحاق بعالم الفناء . وهي تخشع وتذل . ثم هي تتجه ببطء لشيء سمع عنه ولم يدرسه وهو : القدر !

وكان الفتى المجنون قد استرد شيئا من ذاكرته الضائعة في هذا الليل البهيم . وبعد نكبته الفادحة . فهو ينشط بعد افاقته ثم يطل من نافذة القطار . ولكنه لا يوجه نظره للارض التي كانت الرمى منذ دقائق ، وانما يوجه نظره للسماء !

السماء ؟! ماذا في السماء ؟

لا تسالني ان وانما سله هو ، وانظر اليه وقد رفع يديه بخشوع . وقد سقطت دمعتان بخوف واحترام وتقديس . وقد خرجت زفرة يحف بها ابلغ معنى قلوب البائسين من مشاعر ومظاهر وعلامات الاكبار والاجلال . . .

السماء ؟! ماذا في السماء ؟

آه . . .

اخيرا واخيرا ايها الشاب المتمرد المغرور . المغمور ببحر الحركة المادية الطامي . الماخوذ بانوار الصالات وأبارات والمنديات والمراقص والملاهي . المختلس من عالم الروحانيات بضجيج المدنية وعجيجها وتيارها القوي الاندفاع . . اخيرا واخيرا تتذكر ايها الشاب السماء . ومن في السماء ؟!

الله ! . . .

نعم : هو « الله » ولا ادري لم يبحث عنه الناس صعودا للسماء . ولا يبحثون عنه هبوطا الارض !

نعم : هو « الله » الذى لانذكره فى الرخاء — ولا فى النعيم — ولا فى اللذة — ولا فى الراحة — وانما نذكره فقط عندما نحتاج ؟ !

« عندما نحتاج » ولست ازيد ورتب على معنى « الاحتياج » و « ملحقاته » ما شئت ، من حاجة الى المال — وحاجة الى الشفاء — وحاجة الى السلوى — وحاجة الى الانقاذ

نعم : هو « الله » ايها الجحود وايها الكفر ! وايها العمى ! وايها الصمم !

هو « الله » الذى نذكر زبدة الصباح ، ومربى الصباح ، وشاى الصباح وننساه ..

هو « الله » الذى نصلى للدرجات ! ونركع للترقيات ! ونسجد للعلاوات ! ونسبح بحمد الوزراء والرؤساء وننساه ..

هو « الله » الذى نحج لكعبة الحكم . ونقبل حجر لاظوغلى . ونطوف حول بيت الوجاهة وبيت المال وننساه ..

هو « الله » الذى نضحى من اجل السلطة الارواح والاموال والاخلاق والوطن وننساه ..

هو « الله » البعيد عن الخاطر فى كل ضحكة ، وكل رحلة ، وكل وليمة ، وكل سهرة . والقريب من الخاطر — فقط — عند الاهات والحسرات !

* * *

هذا « ذكر الله » رفه عن الفتى لوعته ، وزحزح كربته ، وخفف مصيبته ونكبته !

فاين « كلام الله » ؟

كلام الله ؟

كد الفتى قريحته . واجهد ذاكرته . واضنى مخيلته . فلم يظفر بكلمة من كلام الله !

واحسرتاه !

الف رحمة على عهد «الكتاب» فى القرية ، والف رحمة على عهد « سيدنا الشيخ جاد » و « ستنا الشيخه صابحة »

بخ بخ ومرحى مرحى !

الحكومة المصرية الاسلامية القرآنية ماذا علمته فى المدارس ؟

ان الجواب عند المستر «دنلوب» وعند خلفاء المستر « دنلوب » حصة واحدة اضافية فى المدرسة الابتدائيه يلقنون فيها

بعض آيات القرآن كالببغاء . فهو يحفظ الآيات عن ظهر قلب ولا يعلم عنها شيئا

حصة « الديانة » هذه تجيء في آخر النهار وقد لعب الجوع بعقل الصغير وبطنه . وقد لعب الحر والعناء بأجفانه ودهنه !

فاذا ما تخطى دراسة الطفولة وانتقل الى الدراسة الثانوية حيث يشرع العقل في النضج . وحيث تشرع المدارك في الاستواء ، كانت الكرة والجمباز أجدى على البدن من الدين على النفس » !

واذن فهناك كرة وجمباز . ولا دين ...

فاذا ما انتقل للدراسة العالية فالدين علم متأخر لا يتمشى والمنطق والقانون والاقتصاد ، هو لا يرتفع الى مستوى العلوم العصرية والدراسات الفقهية !.

فاذا ما تخرج الفتى لم يذكر من قرآنه . ودينه . وسنته . وروحانيته غير خيالات «كتاب» القرية ، وغير ايضاحات «سيدنا» الشيخ و « ستنا » الشيخة

فاعذروه ان انطلق عدوا الى « البنسيون » الذي لم أشأ أن أسميه ؟ ...

واعذروه اذا نسي « الله » ونسي « كلام الله » ...

واعذروه اذا حرضته نافذة القطار على السفر الى النار ، وبئس القرار ...

***

واشتدت لهفة الفتى على « كلام الله » ...

وكان بين اخوانه من فريق الكرة المسافرين معه شاب طيب سدين أطلق عليه اخوانه اسم « الشيخ احمد » ..

اقترب منه الاستاذ الناشئ وأسر في أذنه أن ينتحي معه ناحية هادئة لانه في حاجة اليه ..

ولبى « الشيخ احمد » الدعوة المستكينة الذليلة

قال : أتحفظ كلام الله كله ؟

قال : كله . والحمد لله

قال : أنجدني فقد أوشكت الان أن أنتحر ! ...

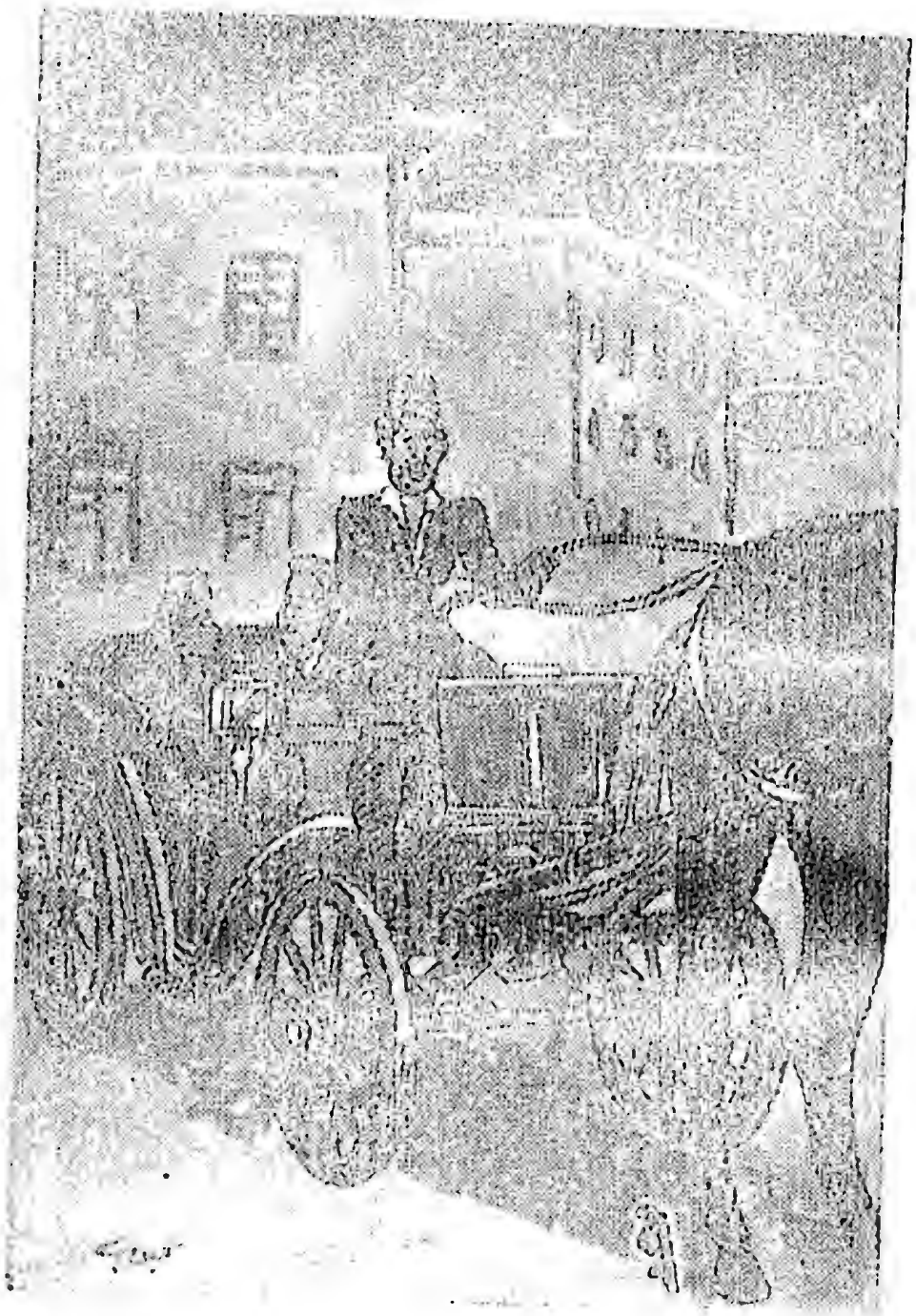

وراى شكرى من واجبه ان يصحب الفتاه الى منزلها فى عربة

هنا خلع « الشيخ احمد » حذاءه « وتربع » وأخذ يرتل الايه : « وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون »

قال وقد أخذته روعة : أعد وتمهل

فأعاد « الشيخ احمد » الاية الكريمه ، وأخذ صاحبنا يلتهم روحانيتها التهاما وهو مطرق اجلالا واحتراما

وقرأ «الشيخ احمد » : « ولا تيأسوا من روح الله · انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »

قال : زدنى يا « شيخ احمد » فانى أشعر بالطمأنينة تتسلل الى قلبى

قال : اسمع : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله · الا بذكر الله تطمئن القلوب »

قال الفتى : بمينا لاذكرن الله ، ولاحفظن كلام الله

قال الشيخ احمد : اذن سأعيرك مصحفى الليلة لتقرأ فيه كلام الله ولتدرك معنى كلام الله

ودفع اليه المصحف الكريم فأخذ يتلو السور سورة سورة حتى قال المنادى : أسيوط · · ·

فكروا فى التأثير عليه حتى يجتمع الشمل وحتى تتكون جمعيتهم الظريفة من جديد ...

وأغرب ما كان فى ذلك الاغراء وذلك الاعزاز انهم حملوا ذلك المحامى النابغة على ان يكتب خطابا يعرض فيه مرتبا شهريا قدره عشرون جنيها ، وهو مرتب يمتاز عن مرتبات زملائه المحامين تحت التمرين وزملائه أعضاء النيابة ...

لما حدثت الصدمة العواطفية وجد « شكرى » الفرصة مهيأة معدة ووجد فى ذلك المهجر ما قد ينسيه آلامه واحزانه ، وما قد يشغله عن ذكرى الماضى الكئيب .

واستقبله اخوانه على القطار الذى يصل بعد منتصف الليل بكثير . وكانت مجاملة لها وقعها . واضافوه الليلة فى منزل أحدهم ، ثم اتصل بأعضاء ناديه حتى انتهت المباراة وملحقاتها من ضيافة وسهرات وحفلات وعاد فريقه الرياضى الى القاهرة . واستلم هو عمله فى مكتب زميله المحامى الكبير ...

***

ولم تمض أيام قليلة على حياته العادية فى أسيوط حتى انطلقت القنبلة الاولى من قنابل الثورة المصرية فى اقليم المنوفية ، ثم تطاير الشرر الى غيرها من الاقاليم ، واشتعلت نار الثورة فى القطر بأسره فكانت ثورة مباركة لعلها المثل الاوحد على رجولة الامة المصرية فى عهدها الحديث !

وقطعت المواصلات بأنواعها بين أسيوط والقاهرة وبين أسيوط وغيرها من مدن القطر ، فكانت عزلة تامة ثم كانت المآسى ...

***

لا تطمع فى أن تقرأ هنا تاريخا لحوادث ثورة فى أسيوط . ليس ذلك من شأنى ولا من شأن بطلى . وانما أنا امزح فى استعراضى هذا بين الحب والسياسة والاخلاق والاجتماع . وفى أسيوط اجتمع لفتانا كل هذا ، فقد وصلت الى أسيوط أخبار الثورة مضخمة مجسمة ، فهذا رجل محترم يقسم بأغلظ الايمان أن عرب « الباسل » احتلوا القلعة ! وهذا آخر لا يقل احتراما يحلف بوحيده « حسونه » أن الرديف المصرى تجمع واكتسح قشلاقات العباسية وقصر النيل ! وهذه منشورات اليد السوداء المصرية المستعينة بالفوضويين .

الطليان والاسبان قد بشرت بفناء الاحتلال وفرضت ارادتها فرضا على حكام الاقاليم المصريين ؟

نفثت هذه الاخبار الثورية روح الحماسة في صدور الناس فتحفزت أسيوط وكشرت عن أنيابها . وكان الحب الميت قد أوقد في صدر المحامي الناشيء شعلة من الشعر الثائر فالف نشيدا وطنيا ملأه بالدم وبالتضحية وبالفداء ، ثم لحنه تلحينا شعبيا سهلا وأذاعه ، وطبع منه الطابعون أكثر من عشرين الفا من النسخ وزعوها على الجماهير وعلى المخادع وفي المزب والكفور وكانت نغمة الائتلاف بين الاقباط والمسلمين أنشودة تلك الايام فترنم بها في نشيده والقاه في الكنيسة في صباح يوم من الايام ، فاذا بالناس تموج موج يوم القيامة واذا بالشر المقدس الوطني المتشفي السفاك يدفع الجموع دفعا نحو الانكليز ...

ويزحف البؤساء العزل زحف الاسود الكاسرة المقلمة الاظفار والانياب على مستودعات الذخيرة المحلية وعلى سلاح البوليس فيتخاطفونه تخاطفا ويتقلدونه فارغا ومملوءا ، ويتكون في لمح البصر جيش الثورة من « الجلاليب » و « الزعابيط » . وعدتهم عبودياتهم الكريهة التي طال عليها المدى ، وهناؤهم المالي والعائلي الذي سعت عليه اهوال السلطة ، فغبت فلذات الاكباد في فلسطين والتهمت الدرة والقمح والحمير والجمال ورزق العيال وقوت العيال ...

ويصيح الصائح ويهتف الهاتف بان « فيصلا » شيخ العرب الغضنفر والصنديد الذي لايقهر قد تقلد القيادة العامة ، ثم يسمع الناس بعد قليل صوت الرصاص في « الميان »

ويخيم الظلام فتشتد المعركة وتحتد ، ثم فجأة تنطفيء الانوار في أسيوط الكبيرة ويسودها الظلام ...

ان وابور النور قد تعطل ...

ويختبيء الناس في دورهم ويحكمون اغلاق الابواب ، وقد انتشر الذعر فتسلل الى كل بيت والى كل قلب

فجأة ينطفيء النور ثم فجأة تندلع النار ...

هذا « تبن السلطة » المكبوس المكدس على مقربة من جدران العمارات والقصور في أسيوط قد أصبح محيطا لا من الماء ولكن من اللهيب ...

والنار ترتفع وترتفع ثم تلقي بأذنابها الطائرة على المباني القريبة فتحترق ...

ويشتهز الاشرار الفرصة فيقتحمون الحوانيت سالبين ناهبين متاجر الاجانب والوطنيين سواء بسواء

وتتوحد الاسر الاجنبية وتتحصن وراء الابواب بالدموع وبالدعوات وبالانين ...

ورجال الحكومة قد سقط في أيديهم من الكبير الى الصغير فلاشوا جميعا وتنح كل واحد منهم بمخبأ يملجأ ...

وتختفي أسيوط ، فلا ترى فيها ولا تسمع الا الظلام والا الرصاص والا النار والا العويل ...

***

في تلك الليلة السوداء المجنونة وجد « شكري » واخوانه الاغراب من أعضاء النيابة والمحامين الناشئين ان البيوت الكبيرة قد أوصدت ابوابها واوقفت حولها الحراس من فلاحيها وزارعيها خوفا من الثورة — الثورة ضد الانكليز ، والثورة ضد الثورة ! ! !

نعم كانت حقا ثورة ضد الانكليز يقودها بعض المثقفين . وثورة ضد الثورة يقودها الاشرار الفقراء . اما ثورة الانكليز فكانت تدور رحى معاركها حول مدرسة الامريكان وحول الخزان . واما ثورة الثورة فكانت تدور معاركها في الحوانيت والمتاجر . وكان « شكري » واخوانه الاغراب يتحصنون في شقة احد الزملاء ، ولكن « شكري » بعد نكبته العاطفية كان لا يزال ذاهلا شارد الذهن لا يقوم روحه بشيء . سمع في الشقة المجاورة انينا ، واحس بكاء وعويلا ، فاتجه نحو الباب واخطر من بداخله بانه رسول امان ففتحوا له ، وجد امامه — ويالهول ما وجد ! — نساء واطفالا رضعا وغير رضع ورجالا كالنساء والاطفال « اجانب » يكاد بهتهم الهلع قبل أن يصيبهم الرصاص . ابت سخافته في هذه اللحظة الرهيبة الا أن يلقي عليهم محاضرة في روح الحركة ونزاهة الحركة ، ولكن من يسمع ومن يصدق . والقت سيدة وقورة بجسمها على قدميه تقبلهما تقبيلا وتوسلا وهي تشير اشارة مستغاثة نحو باب العمارة ، وكانت عمارة محمود باشا سليمان رجل الصعيد العتيد . وولده « محمد باشا محمود » احد المنفيين في « مالطة » ومن اجلهم قامت الثورة واندفع « شكري » نحو الباب يتبين ما يجري فاذا به يلمح سفائح البنزين المنهوب من مخزن مجاور قد رصت رصا على محاذاة جدار العمارة ، واذا به يشهد — ويالهول ما يشهد ! — الثائرين يوشكون ان يشعلوها بعيدان الكبريت ! ! !

زار فى وجوههم زئير اليائس المستميت . فقال أحدهم : « هنا انكليز » . . . قال : أخطأتم بل هنا أجانب . وهنا أمهات . وهنا أطفال ومن يقدم أحدكم على جريمة قبل أن أكون أنا أول ضحية ، هذه عمارة « محمد محمود » ولأجل حريته وحرية بلاده ثرتم . وأنتم الليلة تخربون بيته وتنسفون ملكه . الى الوراء . الى الوراء . .

قال وحش من الوحوش : « أسكت . وهل وزع محمود باشا سليمان أرغفة العيش على الجائعين ؟ نحن طلاب قوت ! ! ! »

وكانت صدمة أية صدمة للفتى الوطنى ؛ خلط عجيب بين طلاب الاستقلال وطلاب القوت ! وخلط غريب بين الكفاح القومى والاشتراكية الساذجة ! . .

وحاول اللص الاكبر أن يشعل النار فقبض الفتى على يده متوسلا ، ولكن الفقر الجاهل الكافر كان لا يعى ولا يفهم . حتى هتف هاتف . اسرعوا الى دكان السجاير ، فتركت العصابة صفائح البنزين وهرعت الى الغنيمة اللذيذة . فحمن ببده هو وزملاؤه الصفائح ؛ ولم يرتد أحد من غواة التدخين . . .

***

صوت الرصاص لا يزال يدوى دويه الرهيب . . .
عمارة « النميس » الحديثة الطراز تشتعل بالنار . . .
بركان التبن المكبوس لا يزال يرسل الشرر واللهب . . .

كل هذا كان هينا بجانب النكبة التى حلت بمتاجر الصاغة داخل البلد . أسبوط عاصمة الذهب و« المصاغ » أصبحت محكومة بعصابات اللصوص . وحوانيت الصاغة وفيها رءوس الاموال الطائلة قد أصبحت أثرا بعد عين

كان التجار الاقباط هم الفريسة ، ولعلى أذكر تعليلا واحدا يهون الامر . فقد كانت الليلة السوداء ليلة الاثنين وكانت ليلة لم يرتقب مقدماتها الاقباط لانهم يقفلون متاجرهم يوم الاحد ، فلم يحتاطوا فحلت بهم النكبة ، وكان هم الشبان المسلمين أن يصونوا الوحدة القومية وكانت مهمة شاقة ، وكان عسيرا على المسلم أن يقنع قبطيا نكب فى ثروته عن آخرها بنزاهة اللصوص وبعدهم عن فكرة « التعصب » . ولعل « شكرى » كان أتعس الناس بهذه الظاهرة ، وكانت مواساة الاقباط المنكوبين سخافة . وتظلل « شكرى » بين العصابات فى الليل البهيم يعظ وينصح ولكن هيهات ! . .

ثروت الثانية . .

. . وفى زقاق من الازقة سمع صوت استغاثة مكتوما فاتجه نحوه فى الظلام . وحدق فى وجه المستغيث فما تبينا سقط على الارض قابضا على القدمين بيديه الفولاديتين ، وانقلب المستغيث مغميا فحنى على الاستاذ بهدى روعه ويثيب اليه رشده . وأفاق « شكرى » فاخذ يقبل شعر المستغيث ووجهه تحت تأثير طارئ ، قريب من الجنون المنصف ثم انهمرت دموعه وأخذ يصيح : ثروت . انت هنا ؟ . اذن لم تموتى ! ؟

كانت الفتاة المستغيثة فتاة هى بعينها « ثروت » فى القوام ، وفى القد وفى اللون وفى الروح ، ولكنها لم تكن ثروت . . .

والفتاة المستغيثة ماخوذة بهذه الحالة العجيبة . ولكنها تحس نحوه احساس الاشفاق فتمسح دموعه وتقول له : تنبه انت شخص ما . انا طالبة بمدرسة الامريكان واسمى « مريم » . . . هيا انقذنى وعد بى الى منزلى . . .

ويثوب صديقى « شكرى » الى رشده فيدرك خطر الموقف وسخافة تصوره . ويستذر للفتاة معتذرا كله خجل . ويحيطها بذراعه وصدره ويقتحم بها الجماهير الثائرة الناهبة ، وهو كالاسد متحفز لكل مفاجأة . حتى اذا استقام الطريق قليلا وخلا من المارة سألته الفتاة برقة : الست صاحب النشيد ؟

فيجيب : انا هو يا آنسة . .

فتقول : لك تهنئتى واعجابى ، انا احفظه عن ظهر قلب وكل زميلاتى . . . ثم تبكى ؟

فيقول لها : مايبكيك ؟

فتقول : جاء ابى لزيارتنا قبل الحادثة ولم يعد للآن فبادرت ابحث عنه وسط هذا الرعب فلم اظفر به . وكدت افترس حتى استغثت بك . . .

قال : احمد الله ، ومن ابن ابوك ؟

قالت : نحن من بلدة (. . .) وهى قريبة من هنا وسنعود بأية طريقة فى اول فرصة . . .

قال بسلامة الله . . .

ومرت برهة . واذا بالفتاة تفاجئه بهذا السؤال :

— ومن هي ثروت ؟ .
قال : هي التي أتت بي الى هنا
قالت : اهي من سكان اسيوط ؟
قال : بل من سكان القبور
وكانت فتاة لماحة ففهمت ولم تتبس ببنت شفة ...
فلما وصلت لمنزلها عطفت قائلة برقة واسى : أتراها تشبهني ثروت المرحومة ؟
قال وهو يضغط على يدها شاكرا عطفها : كل الشبه
قالت : اذن ادعوك لزيارتي كلما شئت ان تراها
قال : اشكرك
وكان ابوها على باب المنزل ينتظرها بفارغ صبر فتلقاها بحنو الآباء . ثم سألها : من هذا ؟
فقالت : منقذي
واستأذن «شكري» وعاد ادراجه وهو بين ثروت الميتة ، وثروت الحية ...

الثورة الجامحة لاتبقى ولا تذر كل شيء في البلد ينهب : اثواب الحرير النفيسة ، زجاجات الروائح العطرية الغالية الثمن ، أسرة النحاس الفاخرة ، الاحذية اللامعة ، الاثاث الذي لا يقدر بثمن ، مخازن « استيز » تنقل كلها حتى « باركيه » الارضية يقتلع ، وكانت المناظر بين مضحك ومبك ، فهذا ثائر يحمل على ظهره « البنك » الذي يعرض عليه العمال الاقمشة ويقف حوله الزبائن وهو بنوء تحت حمله الثقيل هاتفا : يحيى الوطن ! ! وهذا ثائر آخر ظفر بجاكتة «سبورت» من جاكتات «التنس» الظريفة فهو يرتديها على جلابيته او زعبوطه وهذا ثائر لبس حذاء من نوعين ولونين ، «الفردة» اليمنى سوداء لامعة للسهرة ، و « الفردة » اليسرى بيضاء للتنس ، — وتضرب الفوضى باختصار اطنابها على اسيوط فلا تحكمها الا الفوضى !!

فاذا ما سألت عن «الحكومة» : اين هي ، وابن مقرها ؟ وجدتها متحصنة في بيوت الاعيان او القناصل محروسة بالاهالي من غير جنس اللصوص ؟!

وتنتشر اشاعة : ان الطيارات الانجليزية على وشك الوصول لتلقي القنابل على المدينة الهائجة المائجة ، فترى في الحال رتلا من

لعربات الفاخرة تحمل الاعيان وتحمل الحكومة ، بموظفيها الكبار ، وتنهب الارض نهبا . الى اين ؟ اتدرى ؟

الى الاسبتالية الاميرية لتلوذ الحكومة ويلوذ الاعيان بالبناء المقدس وليختفوا فيه تحت حماية المرضى وذوى العلل والاسقام ! ...

وتسمع فى السماء ازيز الطيارات فيملأ الذعر قلوب الثائرين وغير الثائرين ويلوح الشبح المخيف فى الجو فيدور دورة أو دورتين ثم يهدى تحيته البليغة الى المدينة : قنابل ...

ويشاء ربك الحكيم الجبار أن تسقط القنابل على الاسبتالية مخبأ الحكومة وملجأ الاعيان والموسرين والارستقراطيين بعد أن أجلوا عنها المرضى وانصاف الموتى ...

ويتحكم الهلع فى الرءوس وفى الابدان وفى الاذهان وفى الالسنة فلا يلد الا مظهرا واحدا : الذهول ...

واستراحت القنابل واستراحت الطيارات بعد أن خطفت عدة ارواح صغيرة لاطفال صغار وبعد أن أسكتت صوت رصاص الاهالى الثائرين ...

ويتروى الاستاذ « شكرى » فى غرفته بالفندق وهو يمزق شعره ويلطم خده من الغيظ ومن العجز . يسائل المسكين نفسه بذل وجبن وانكسار : أيصعد الى السماء فينازل الطيارات ؟ أم ينزل الى الارض فيكافح العساكر « الهنود » ؟

هو يهتف : الى النزال الى النزال ؛ ولكنه يلوح بيديه أسوة بالمرحوم المبرور « دون كيشوت » البطل المغرور

***

ويدق باب الغرفة فجأة فيأذن بالدخول
الخادم يحمل ورقة صغيرة فيها هذا الاسم :
« ثروت » ...

***

ويدخل الآنسة « مريم » وعلى ثغرها ابتسامة شجاعة فتلقى تحية ساذجة بعيدة عن التكلف والتصنع وعلى الطريقة الانكليزية المهذبة المحببة الى القلب والنفس ...
برهة ما أدقها وأرقها وأصعبها فى التحليل ! ...

دهشة ، وعاطفة ، وتقدير ، وحيرة . . .

ويغلق الباب . ولا يدرى واضع هذا الاستعراض من أغلقه : أهو الخادم ؟ أم الاستاذ . أم الآنسة ، أم هو الجماد أغلق نفسه بنفسه برا بهذا الطهر وهذا العفاف ؟ . . .

قالت : هل يحرجك وجودى ؟

قال : مطلقا يا آنسة ، بل بالعكس . وجودى الذى يحرجك . . .

قالت : لا يعنينى ، أنا أسيوطية وأنت فى أسيوط غريب . . .

قال : شكرا

قالت : نعم غريب . . . وحزين أيضا . . . ومهدد بخطر !

قال : شكرا

قالت : وعدت « ثروت الحية » بالزيارة فلم تفعل ، فها هى تسعى اليك .

قال : شكرا

قالت : خشيت عليك من الطيارات فجئت لأطمئن . . .

ولمحت الفتاة اللماحة فى عينيه دمعتين فأخرجت منديلها الصغير الانيق وهفت به وبأناملها عليهما ، فاستولى على يدها الصغيرة يقبلها بضعف واستسلام . . .

***

هل تلد لك أيتها القارئة الصغيرة وأيها القارىء الصغير رواية هذه المقابلة العجيبة ؟

كان من رأيى أن أضن عليكما بالتفاصيل لولا أنها تكاد تكون خالية من التفاصيل . . .

هو مشهد من مشاهد السينما . ولا عجب فالفتاة لابد قرأت كثيرا من الروايات وشاهدت كثيرا من « الافلام » السينمائية . ووجدت فى صاحبنا بطلا من الابطال الذين شاهدتهم أو قرأت عنهم فأقدمت وفى نفسها أن تفاجئه لتواسيه .

و « ثروت » عندها قصة ، ومثار للفضول وحب الاستطلاع ، وهو غريزة الفتيات والجنس الناعم على العموم . . .

اذن لنهمل الخطر جانبا . ولنحتقر الطيارات مؤقتا . ولنتجاهل أسيوط المنكوبة لحظة ، وليتكلم « شكرى » طويلا عن « ثروت »

يا لسذاجة الفتيات ! !

لئن قبلنا عذر الآنسة « مريم » فكيف نقبل عذر الفتى الناضج

« شكرى » وقد اخذ يروى قصة « ثروت » بأسلوب تركب من الحماسة، والدموع ، والتنهدات ، والحسرات ... ؟

يقول بعض خبراء العواطف : ان « الخطر » يلد العاطفة بسرعة البرق ! اليس هو الذى يعطف القلب على القلب ؟ ! اليس هو الذكرى الرائعة الرهيبة التى لاتفارق الاذهان فى مختلف الاسنان ؟

وما هو الحب ؟

هو عندى بلا تطويل ولااطناب : مجرد « الذكريات » ..

هل فهمت ما اقصده من هذه العبارة الموجزة ؟ ان كنت لاتزال محدود الذكاء فاعلم ان عاطفة الشبان سريعة بين « شكرى » و « مريم » ولكنها « شىء » مبتكر فى عالم العاطفة لا !

أما « شكرى » فدعاه ان هذا « الشىء » نحو « مريم » هو الوفاء كل الوفاء « لثروت »

اليست تشبهها قدا ، ولونا ، وروحا ؟ !

اذن هو لايخون الميتة بهذه الحية . . .

وعجيب هذا الوفاء الاموات ! !

أنه يشعر رغم هذا التخيل بشىء من وخز الضمير

ولكن ما ارحمك يارب !

يموت العزيز علينا فتشيع جثته بكل مظاهر الحزن والجنون والوجيعة ، فاذا ماتسمنا الماتم فى ليلته الاولى لم تتعفف عن السمر وعن تبادل النكات وعن الضحك ؟!

وتغيب فى اسرع من رد الطرف ذكرى العزيز . . .

ويغيب الوفاء . . .

ليس هذا فى نظرى جحودا ونذالة ، والا كان جحودا من اخس انواع الجحود ، ونذالة من احقر انواع النذالات

انما هو « الله » سبحانه وتعالى يبعث الصبر الى نفس المحزون بقوة تفوق قوة الحزن رداً لفعل الصدمة فتتخدر الاعصاب المتوترة فتعود فى الحال سيرتها الاولى . . .

فينسى الاحباء الاموات فى اقرب الاوقات ! . . .

***

أما « مريم » الصغيرة الناشئة فقد أحدث الخطر فى نفسها هزته الاولى

ثم أحدثت المفاجأة الثانية الهزة الثانية . . .

ثم استفز عواطفها الفضول . . .

ثم لذ لها أنها تشبه فتاة من أجلها سال دموع شاب معروف ، ومن أجلها حدث تشنج وأغماء ، ومن أجلها تجلت عواطف قوية فيها لوعة وفيها أنين ...

ولا يغرى المرأة الصغيرة او الكبيرة غير الاعجاب المضمر او الصريح ...

ثم أتدرى ما الذى أشعل هذه العاطفة الصغيرة العجيبة ؟

انها الغيرة !

واو من ميتة ! !

والغيرة من الاموات عنصر فقد من عناصر غريزة المرأة ! !

أنها غيرة لاتصل الى مستوى التشفى او الحقد أو المقت . وانما هى غيرة والسلام ...

ولا تستكثر هذا التحليل على فتاة فى سن الثامنة عشرة ، اذا ان أتجهت الى هذا النقد عدد ذلك محدود النجربة فى عالم الفتيات !

وليس هذا مجال الدفاع عن نظريتى بتطويل . وانما أقول باختصار : تلك هى تجاربى وكفى !

***

هذه هى نفسية الفتى ونفسية الفتاة حين كان « شكرى » يروى و « مريم » تسمع ، وحين كانت الثورة فى أسيوط تسكن أمام صوت مقذوفات القنابل ، ولكن احتشام الشاب الاصيل والشابة الاصيلة كان يحول دون كل تلميح أو تصريح . كانت العواطف تتفاعم بحذر وتحفظ وجبن . وكانت الالسنة خرساء والعيون تقاتل ولكن الروحين تتقاربان

وانتهت المقابلة على « رسميات » فيها حنو ، وعلى مواعيد ومقابلات فيها خفر وحياء ...

***

لم تكد الفتاة تلتفت نحو الباب حتى سمعت أسيوط دويا ثالثا هو مدفع « المتراليوز » قد ركب وسط الخزان وأطلق ناره يمينا ويسارا فأباد مخلوقات ومخلوقات وراى « شكرى » من واجبه ان يصحب الفتاة الى منزلها فى عربة فركبت مكرهة وركب مكرها ، حتى اذا وصلت الى باب منزلها ودعها بارتباك ...

وعاد فى الحال الى غرفته ثم أغلق بابها وهو فى اشد حالات التهيج والسخط ثم نظر فى المرآة وخاطب نفسه قائلا : انت نذل !.

***

ثم ارتمى على سريره يبكى الوفاء ويبكى عدم الوفاء
ثم زفر زفرة وهمس هاتفا : غفرانك ياثروت ...

القرون الوسطى !!!

وما شأن القرون الوسطى بسنة ١٩١٩ ؟
بل وما شأنها بأسيوط ! ...
سل الجنود البريطانية الاوسترالية الهندية الزاحفة نحو اسيوط ...
سل « النيابة العمومية » الانكليزية القائمة فى أسيوط ...
سل المحاكم العرفية المنعقدة فى أسيوط ...
سل الضحايا وأذرف الدمع على البلد الذليل المسكين ...

***

انطفأت نار الثورة فى عاصمة الصعيد ...
وابتدأت نار السلطة فى الاشتعال ...

***

اقرأوا الاوامر الاتيه :
« يجب على كل مصرى كائن من كان أن يؤدى التعظيم العسكرى لكل بذلة رسمية من بذلات جيش جلالة الملك البريطانى فى الطريق » !!
« يجب على كل صاحب بيت تطلب السلطة العسكرية تفتيشه أن يفتح الابواب فى الحال » !!!
« يجب على من اتصل بعلمه اى تفصيل من تفصيلات الاضطرابات ان يقدم البيانات فى الحال » !!!
سمعنا واطعنا ... ...
هانحن نؤدى التعظيم العسكرى اللازم لكل « بذلة رسمية » ولو كانت لسواق سيارة ، أو لسائس حصان ...
هانحن نفتح الابواب لعساكر السلطه السكارى المترنحين ..
ثم — واحسرتاه — هاهى البلاغات تنهال كالمطر على المعسكر !.

***

وتربع « مكنوتن » مفتش الداخلية على العرش وملك وحكم ..
وسطا « كرباجه » على ظهور المهندسين والمعلمين فى القهوات

والمشديات العامة . وذل له الكبار والصغار والحكام المصريون والمحكومون المصريون ..

وتسلى العساكر الانكليز بأرصاص يداعبون به أرواح المارة من باب المزاح وتضييع الوقت ماداموا أرواح هذه الخراف بغير ثمن ؟!

***

في وسط ذلك الرعب طافت الرءوس جميعها ماعدا رءوسنا .. رءوسنا صغيرة لينه طويلة تراصت تحت أعلام غير منكسة : بل تحت أعلام مرفرفة في الهواء متوثبة نحو السماء ! ..

يهدرون هدير البحر ويزأرون زئير الاسود ، منشدين :

« وطني ! وطني ! . . »

وزحف الجيش الصغير الوثاب نحو دار احد اساطين الزعماء — بسيوني بك — وحاصر القضاة والمحامين في اجتماع عقد باسم « النصيحة والتهدئة .. »

واذا بالجيش الصغير ينتفض جيشا عرمرما بارز القلوب ، والانياب ، والاظافر ، واذا به يصطف صفوفا منتظمة ، وينتظم فرقا وصباطا ، وجنودا ، وحملة أعلام ! . . .

وخطب القائد الصغير الاول فقال :

« جاءت أخبار الاعداء بأن جيشهم زاحف ! وان رصاصهم « دم دم » ؟ فأعددنا العدة للمعركة . وسلاحنا سلاحان مضمونان : قلوب وايمان ! ! »

ثم نهض القائد الصغير الثاني فقال :

« قيل لنا ان « دم دم » هذا رصاص مسموم ينقل من الاولى الى الاخرى في ثانية . فأعددنا له عشرة أعلام وعشر ضحايا . فاذا سقط حامل العلم الاول تقدم وريثه حامل العلم الثاني ، وهكذا حتى تبيد فرقتنا وتسقط أعلام مصر على جثث فتيان مصر ! ! »

هنا قام احد البارزين فما كاد يفتح فمه بالقول البين حتى أخذته الصيحات من اليمين واليسار ومن الامام والخلف وحتى امتلأت جوانب المنزل بالنشيد الناري .

نشيد الاستاذ « شكري »

ووراء صفوف الفتيان انتظمت صفوف الفتيات وعلى رأسهن القائدة « مريم » ؟

***

أولئك كانوا طلبة مدرسة الامريكان لم يشهد الاستاذ « شكري »

فى حياته أبلغ السنة ، ولا أعمر قلوبا ، ولا أعنف عزائم ، من السنتهم وقلوبهم وعزائمهم ..

وعبثا حاول الزعماء المجتمعون أن يخفوا من حدتهم وبادر الوشاة فبلغوا معسكر السلطة ان « الضحايا » الفتية قد باعت — سلفا — الوطن الارواح والابدان . فخشيت السلطة تجدد الفتنة والقت السلاح وفرغت فى « الفاص » الرصاص المسموم ...

وانقذ الطلبة الاعزاء أسيوط الكبيرة من نكبة دامية . ولله در طلبة الامريكان ، كانوا عنصر الثورة الذى ضرب المثل الاعلى فى معنى الثورة ومعنى الفداء !!

***

امطرت سماء الخسة والنذالة وابلا من البلاغات على ضباط السلطة القضائيين ، وبدات التحقيقات تسير بسرعة البرق ، وصدرت اوامر القبض كرصاص « المتراليوز » تصيب من فى طريقها بريئا كان ام غير بريء ، نجرا كان ام غير كبير ...

تلك كانت تحقيقات تليها محاكمات وفيها « سين » و « جيم » واخذ ورد . انما كانت بجانبها طلقات نارية يطلقها العساكر الانكليز على من يتوسمون فى شكله ، وعدم انتظام تقاطيعه ، وقلة انسجام ملابسه ، انه مجرم .. مثل هؤلاء كانوا لا يستحقون قيضا ولا تحقيقا ولا محاكمة .. علام ضياع الوقت وضياع الحبر ، وضياع الورق ؟ ! ..

الرصاصة السريعة هى المحققة وهى المحاكمة وهى المنفذة ، والقبور موجودة فى الطريق ، وفى الزوايا ، وفى الازقة .. ورحم الله من لم ترحمه السلطة العسكرية ؟!

من بين « الضحايا » المرحوم « كامل » مأمور البندر ، أتدرى ماكانت تهمته ؟ ؟

حينما فاجأ الثوار محاولين اقتحام الابواب لاغتصاب السلاح اتصل بكبير الحكومة طالبا الامر فقال له : تصرف ! ...

واتصل بالمستر « مكنوتن » الانكليزى ممثل السلطة العسكرية فقال له : تصرف ! ...

واتصل بقائد القوة العسكرية القليلة الموجودة اذ ذاك فقال له : تصرف ! ...

وتصرفت الضحية المسكينة بالشدة تارة ، وبالنصيحة تارة اخرى ، وبالخداع حينا ، وبالاغراء احيانا ، وكان وحده هو الكا. فا

الكل ، والباقون متحصنون اما في المخابي ، او في المغاور ، او في المستشفى ، وخفف تصرفه الحكيم من حدة الحوادث ... ثم ذهبت الايام فاذا به يحاكم على انه «تصرف» واذا به يتلقى حكم «الاعدام» واذا بجثته يحملها في الفجر اعوان السلطة فيلقونها تحت اقدام عياله وأولاده ليبحثوا لها عن حفرة !!.

الى رحمة الله أيها البرى .. لم يكن الاعدام لجريمة وانما كان القصد منه « الارهاب » وصادفته القرعة ! ..

وقبضت السلطة على عدد وافر من الزعماء والاساطين الذين كانت مهمتهم في أسيوط هي النصح والارشاد وكبح جماح الثورة والثائرين !

لم ؟ ! ...

صعب عليك ان تفهم منطق السلطة العسكرية ..

قاعدة قضائية عندهم لاتقبل مناقشة ولا لجاجا : « أن من كان يملك النصح والارشاد . كان يملك منع الثورة فهو مجرم » ! : !

وامتلأت السجون . ولا أريد ان اطيل عليك الحديث فهو لاينتهى ...

اهرب ! ...

« اهرب » ! ...

كلمة صغيرة في ورقة صغيرة وجدها « شكرى » في غرفته ..

والخط كان خط « مريم » ..

« شكرى » كان يعلم تمام العلم أن السلطة العسكرية كانت اذ ذاك سلطة غاشمة ، ويعلم انه الف نشيدا القاه على آلاف المجتمعين في الكنيسة يوم المعركة الاولى . وكان يعلم أنه من السهل جدا أن يقال عن نشيده النارى انه المحرض الاول للثورة ، ويعلم أنه من الميسور جدا ان يكون الجزاء لهذا المنطق المتسلسل المنسجم انما هو : الاعدام ...

تراءى له هذا الموقف بكل ما فيه من خطر وبشاعة وروعة ، فهل تدرى ماذا كان احساس فيلسوفنا الصغير الطائش نحو هذا الانذار

انه أخذ يقبل الورقة مثنى وثلاث ورباع ...

أليست من « مريم » ؟ ...

أليست من شبيهة « ثروت » ؟ . . .
أليست من الصغيرة الناشئة العاطفة ؟ . . .
أليست تتضمن نوعا من العطف ومن الوفاء ؟ ثم من الخوف عليه . . .
لا ، لا . . .
يجب أن يذهب توا للبحث عن « مريم » ليعرف منها التفاصيل التي تهدد حياته . . .
كانت هذه هي الحجة الظاهرة المقبولة . . .
أما الحجة الحقيقية فكانت فرصة للقاء . . .

***

هي : ألم تهرب بعد ؟
هو : وهل أستطيع ؟ !
هي : كيف ؟ بأية طريقة ؟ وفي الحال ! . . .
هو : وبدون أن أراك ؟ !

. . . . . .

سكتت « مريم » عندما أبدى « شكري » هذا الاعتراض . ولكن الفتاة كانت جادة غير هازلة ، وفاضت عواطفها وأخذت تقبل يده بشدة قائلة : اهرب ! اهرب ! انك في خطر . . .
قال : أين والدك ؟
قالت : ذهب ليبحث لنا عن وسيلة للسفر . سنغادر البلدة الكريهة في الحال .
قال : اذن حق على الهرب ؟
وتشجع فأخذ يدها اليمنى بين يديه ولكنها لم تعطه الفرصة برجولة وكبرياء . . .
قال : لعلي تجاوزت حد الأدب . . .
قالت : بل تجاوزت حد الجبن . اسمع يا « شكري » ليس الوقت وقت عاطفة انهم قد شرعوا يحققون في نشيدك . وفي قريب يصل مع رجال التحقيق أبلغني هذا فذهبت اليك ولم أجدك وخوفا من ضياع الوقت تركت ورقة وكلمة . . . ثم أسمع ماذا فعلت بعد ذلك : بحثت عن « المطبعجي » وعرفت اسمه ومكانه . وقام معي فورا فأتلف المسودة التي بخطك وأتلف النسخ التي في عهدته . ثم مررت على بيوت زميلاتي بقدر الاستطاعة فمزقنا النسخ الموزعة

عليهن . ثم ذهبت الى المكتب فاخطرت « مصطفى افندى » الوكيل بالموضوع . ثم أوصيت قريبى الذى يساعد المحققين بك وبشبابك خيرا ...

قالت هذا كله بحماسة ورعشة ثم جلست على كرسى والقت براسها بين يديه فاذا بهما مغمورتان بالدموع ! ! ! ...

* * *

ومرت لحظة ..

ثم انحنى الفتى العاطفى يلثم شعرها بفمه

ثم همس فى أذنها قائلا : اتركى نشبدى . وتكلمى عن قلبك وعن قلبى ...

قالت بعد تردد وصمت : دع الحديث عنهما للمستقبل ...

قال : انك قبطية ؟

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : اننى مسلم ...

قالت : لم افهم شيئا ...

قال : هل يمكن ان نلتقى ؟

قالت : بعد ان يستتب السلام . ولم لا ؟

قال : لم تفهمينى . هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ! .

انتفضت الفتاة وقد توردخداها فبجى جمالها القبطى وامتزجت حمرة اللون بضعف الخفر فكانت سحرا وسحرا « حلالا » ...

وتمتمت قائلة : شكرى ...

قال : نعم يامريم ...

قالت : النشيد !

قال : بل القلب !

قالت : أعد السؤال ...

قال : هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟

قالت : عندى الجواب . ولكنى ...

قال : ماذا ... ؟

قالت : خجول ...

قال : اذن لن أهرب ! ! !

قالت : اتوسل اليك ...

قال : حتى تجيبى ...
قالت : اتعدنى ان أنا أجبتك عن سؤالك أن تهرب فى الحال ؟ ...
قال : فى الحال ...
قالت : أعد السؤال ...
قال : هل يمكن ان نلتقى تحت ظل عقد مقدس ؟
قالت : نعم ! ...
قال : وكيف ؟ !
قالت : ... الدين هو القلب ...
قال : اتسمحين اذن بقبلة ؟ ...
قالت : هاكها ...
وقبلها الفتى قبلة الطهر ، قبلة جبانة خجولا مترددة نزقة لم تستغرق ربع ثانية ! ...
وانسحب مسلوب اللب وهو يقول :
— الى اللقاء !
وهى تجيب :
— الى اللقاء ! ...

* * *

عندما يقرأ القراء كتابى قد يستفزهم بعض النتائج السريعة فى المواقف الغرامية والاجتماعية . هذا الوعد السريع بالزواج . وهذا الاتصال القلبى السريع بالفتاة القبطية ، قد يكونان فى نظر بعض القراء مأخذا ومحلا للنقد ! ...
ليكن ...
لست أدون وقائع خيالية من رأسى ، وأستمد تصويرها من خيالى . ولست أنقل لكم المثل الصحيح للتجارب الصحيحة ، وانما أنا أنقل لكم بأمانة حقيقية حوادث مادية وقعت بالفعل كما قدمت .. فى المسألة الاولى ... ليفهم القراء جيدا اننى لست بالمؤلف بالمعنى الذى يفهمونه . فان كان ثمة ملاحظات فمسئوليتها على ابطالى ...
واذا انا راجعت صديقى « شكرى » وقلت له : كيف يتحول قلبك فى مدى اربعة شهور او خمسة شهور الى فتاة حية ، وقد دفنته بجوار فتاة ميتة ؟ !
قال وهو يتأوه : آه لو دخلت قلبى وفحصته انه ما نسى الميتة .

ولن يجد الحية . ان «الزواج» يا صديقي هو علاج المنكوب في الحب . ان «الزواج» هو البعث وانه هو السلوى ...

ثم انصفني وخبرني . من أحببت ؟ أليست هي التي رحت بتلدها وجمالها وروحها ؟ ثم ماذا أقول في الخطر الذي جعلني بها وعرفني بشخصها ؟ ثم ماذا اقول في عطفها وحنوها علي . وفي لوعتها على حياتي ؟ ثم ماذا أقول اخيرا في قلبي ؟ تالله لو اقتعتني بانه جحد او خان لسحقته . . ولكني اسائله في ظلام الليل وفي هذا الخطر فيقول : هي — وهي ؟ ! !

واني لقلبي مطيع ! ! !

تاجر الحمير ؟ !

«عثمان افندي» ضابط بالمدرسة الثانوية . يساعد هو الآخر المحققين . ولكنه كان لا يسلو الخمر . فهو دائما ابدا سكران . قابل «شكري» في المساء فمد «شكري» يده مصافحته . فقبض عليها وهو يهتز سكرا وذعرا وقال : الوداع ؟ !

قال شكري : من تودع ؟

قال : أودعك . لقد بدأوا ينحرون عنك وعن نشيدك ...

في هذه اللحظة وفد أحد القضاة ممن يحتلون اليوم منصبا من أسمى مناصب الدولة القضائية فنصح «شكري» بالفرار فورا الى ساحل سليم . وأبلغه انه كلف من سعادة المدير بتبليغه هذا الانذار

قال شكري : ان الفرار دليل الجرم . ثم بأي حق أنكب عائلة «محمود باشا سليمان» بجريمتي ؟ لا ، سأبحث عن طريقة أخرى .

وقام من فوره فبحث عن وكيل المكتب وصفى معه أوراقه واشغاله ثم علم أن زورقا بخاريا سيقوم في الصباح الى «ديروط» يحمل فرقة من الجند تحت رياسة احد الضباط الشبان ومعهم مرتبات المركز فقال في نفسه : ان الشباب يحن الى الشباب . فلأحاولن ان أتدس في الزورق البخاري مع العساكر ، حتى اذا ما وصلنا الى «ديروط» تابعت رحلتي على الركائب أو العربات من مركز الى مركز ، ومن اقليم الى اقليم ، حتى أصل الى بني سويف . وقبل ان شركة «كوك» تنقل الركاب من بني سويف الى القاهرة . حيث تقضي رحلتي ، وتتحقق نجاتي !

وفى الصباح الباكر بعض «شكرى» متسللا بالكتمان الى حيث يوجد الزورق البخارى والعساكر والضابط الشاب . وشرع الزورق يتحرك فقفز فيه ولكنه لم يشعر الا والضابط الشاب ينهال عليه بعصاه هو وعساكره ليحولوا دون نجاته !

وضاع الامل واضطرب برنامج الرحلة من أوله لآخره ..

وعاد بعد أن ودع النجاة ليستقبل الخطر !!

وفى طريق العودة وسط المزارع ارتمى على جذع شجرة يفكر فى شيئين :

(١) مريم ...

(٢) حياته ..

* **

وكان التعب قد أخذ منه مأخذه . وشعر أنه فى حاجة شديدة الى النوم . ولكن كيف ينام قبل أن يطوف بدار الفتاة . واتجه نحو الدار فوجدها مقفرة . وعلم ان الاسرة القبطية رحلت الى مسقط رأسها

وعاد الى الفندق فوجد غرفته لم تحتل بعد . ووجد على المنضدة ورقة صغيرة اخرى فيها هذه الكلمات: «سيصلك رسول وخطاب عند وصولى باخبارى . افدنى بأخبارك فان كنت قد سافرت فاكتب الى بعنوان والدى (... ...) لاطمئن على سلامتك لك عواطفى وعهدى » ...

***

وكان الموقف يستلزم عملا حاسما وسريعا ...

ولكنه لم يوفق للعمل الحاسم السريع فى اليوم التالى . بل شعر بوحشة لم يشعر بها طوال أيامه بأسيوط . فقد كان اخوانه الموظفون يتحاشونه ويتباعدون عنه . اذ قد سرى بينهم انه «محل تحقيق» ...

وفى المساء وفد عليه شاب أسمر اللون ، عصبى المزاج ينتفض خوفا . وتقدم الشاب فعرفه بنفسه بصوت خافت قائلا : انه قريب «مريم» ومساعد المحققين . ثم سأله بلهجة الخوف : ألم تدبر أمرك بعد ؟!

قال : دبرت . وفشلت ...

قال : لايزال فى الوقت متسع ان أوراقك تحت يدى وسأوخر

مرضها . ولكن لاتطمع في أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ... واني أدلك على طريق . لقد عادت قطرات السكة الحديد للسير . ولكنها قطرات حربية فقط تحتاج الى «جواز سفر» ...

قال شكري : ولكن من يمنح الجواز ؟

قال : السلطة العسكرية

فضحك «شكري» وقال : اذن ألجأ الى الاتهام في فراري !!

قال: انهم لم يعرفوا شخصيتك بعد . وانما الكلام حول النشيد وحول البحث عن مؤلفه . فعندك فرصة !

قال له : شكرا . كيف الاسرة ؟!

قال : رحلت . ولكني سمعت ان في البلدة حوادث حصلت أمس واليوم . وسأبلغك اياها ان تأخر فرارك ...

قال : بالله عليك لا تضن علي بالتفاصيل . ثم ودعه شاكرا وانصرف الشاب ...

***

كانت حالة «شكري» النفسانية سيئة للغاية : في البلدة حوادث! ولكن ما شأن «مريم» بها الا أن تذعر أو تخاف . وقد ذعرت وخافت في أسيوط . لا بأس ! ان القطر كله حوادث ...

***

وتحرى «شكري» فعلم حقيقة ان «القطرات الحربية» تسير . ولكنه علم أن «ويصا بك» من كبار الوجهاء والاغنياء طلب جوازا بصفته قنصل أمريكا فرفض الطلب ... وان الحصار تام وانه من المستحيل أن يظفر بتلك الامنية ! ...

وأخرج « شكري » أوراقه يفحصها ورقة ورقة ليعدم منها ما يمكن أن يكون محل شبهة . فوجد بينها « تذكرة العضوية » بناديه القاهري الذي تبارى مع نادي أسيوط . وخطرت له فكرة طارئة فقال في نفسه : «الانكليز قوم «سبورت» يقدرون الرياضة والرياضيين . والرياضة لا دين لها ولا جنسية . وهي تخلق بين جميع الاجناس والملل نوعا من التضامن والتساند والتعاون . فلنجرب تذكرة العضوية والهبة الرياضية »!

وكان يعلم ان من بين مدرسي المدرسة الثانوية الانكليز مدرسا يدعى المستر «سنودن»

وكان يعلم انه ارتبط مع بعض أقاربه في القاهرة بعلاقات صداقة

متينة . وكان يعلم انه لعب امامه في المباراة التي حصلت بين نادي القاهرة ونادي اسيوط ...

وتشجع وذهب لزيارته وعرفه بنفسه وذكره بالمباراة ...

قال الانكليزي : كيف حال ابراهيم ، وحسين ، وكمال ...؟

قال : جميعا بخير ..

قال : ما قرابتك بهم .. ؟

قال : اولاد اعمامي ..

قال : وما رايك في المباراة التي حصلت بيننا ؟

قال : ولاك يامستر «سنودن» تغلبناكم « دسته » ..

واستغل « شكري » غرور الرجل وكان مبتدئا في « كرة القدم » ومن السهل اغراء المبتدئين

وكانت النتيجة انه ارتاح لمحادثته وتبسط معه ثم ساله : « ولكن كيف لم تعد مع ناديك ؟ »

فابرز « شكري » تذكرة العضوية واطلعه عليها

ثم قال له : لهذا جئت لتساعدني في الحصول على جواز سفر في القطار الحربي . تاخرت عن السفر لان والدي انتهز فرصة سفري لاسيوط فاعطاني سبعين جنيها لاشتري « حميرا » . فاسيوط مشهورة بنوع «الحمير» ووالدي مزارع ..

قال : الم تشترك في الاضطرابات ؟ ..

قال : وكيف ؟ انني لا اعرف احدا هنا . وقد سافر اعضاء « النادي » وبعد يومين اثنين قطعت المواصلات . وانفقت المبلغ ولم أوفق الى شراء « حمار واحد » . . وأريد الان ان أعود ! ..

قال : تعال ..

وأخذه الى الضابط المختص ويسمى المستر « ترنك » وعرفه به . وفي الحال حرر له جواز السفر على الوجه الاتي :

(شكري ..)

(تاجر حمير)

(يصرح له بالسفر على القطار الحربي باكر)

(وجهته القاهرة)

***

والتقط « شكري » الجواز شاكرا صديقه الانجليزي وعاد وهو يخفي السر على نفسه ...

تفتيش حتى الساعة الثانية صباحا

وجوب جلاء الذكور عند التفتيش

فى المساء نادى المنادون بأن السلطة العسكرية ستفتش البيوت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ! . . .

وان السلطة تأمر بأن لايكون موجودا عند التفتيش جنس « الذكور » ممن هم فوق الثانية عشرة ؟!

وان الطرق ستراقب ويفتش المارة من الان حتى الساعة المحددة ؟!

ماالفكرة فى ابعاد الذكور ؟!

روعت أسيوط كل الروع بهذا النبأ فهجرت الاسر المسالمة فى الحال منازلها وقضت الليل فى الجبانات على بعد كيلومترات . .

وهاجرت الاسر القبطية الى العراء على مسافات تتراوح بين خمسة عشر كيلو مترا وعشرين

وانتشر الذعر وفقد الناس الادراك خوفا على «الاعراض» !

***

العرض . . ؟

وما مناسبته . . . ؟

قالوا ان الذئاب الوحشية العسكرية سطت على الاعراض فى نواحى الاقليم . وهذا هو سر الهلع وسر الرعب وسر الفرار ؟

ولكن « شكرى » كان مشغولا برحلته فى الصباح على القطار الحربى فلم يعبأ بهذه الحكاية

ونشر الليل ظلامه على «اسيوط» الباكية ، ودقت الساعة الواحدة فكانت شبه خالية من العائلات . ووجدت السلطة ان من العبث تنفيذ الامر فعدلت فى اللحظات الاخيرة . . .

ونام «شكرى» ليلته مضطرب النفس ، قلقا ، يستشعر نكبة ، ولكنه لايحس الا انها ستحل بشخصه

***

واخفى الامر عن أعز اصدقائه لامن ناحية عدم الثقة بالاصدقاء ولكن من ناحية عدم الثقة بشهوات الالسنة

وفى الساعة الخامسة صباحا نهض من فراشه وجمع حوائجه ينفسه الى القطار

وكان قد ارسل ورقة الى تريب « مريم » في الليل يخبره بنجاحه وسفره في هذا الميعاد

واخذ مجلسه في القطار في الدرجة الثانية او الثالثة لايدري ومر الضابط والجنود الانكليز يحدقون في وجهه لانه كان الغريب والمصري الوحيد بين الركاب

وأبرز لهم الجواز اكثر من عشر مرات فكانوا يقرأون ويندهشون وفتشوه مرات كثيرة فلم يجدوا معه بالطبيعة شيئا ... .

وصفرت القاطرة ...

وبدأ القطار يتحرك ...

***

يا الهي ..

ان انفدر القاسي يتمخض عن شيء عنيف رهيب !

كان هذا شعور الفتى وقد أحس ظلاما في داخلية نفسه وهو يودع « أسبوط » المنكوبة

وتحرك القطار وسار متثاقلا فاطل من نافذة ليودع الذكريات الكريهة والمحبوبة

واذا به يرى رجلا يجري بسرعة على محاذاة القطار وهو يلهث من التعب ولسانه لايفتأ ينادي: الاستاذ شكري ... الاستاذ شكري ...

ويمد يده فيأخذ من الرجل ظرفا مجللا بالسواد ...!

؟ !

. . . . . .

الظرف بلا عنوان ...

ممن يكون الخطاب ؟

وهذا السواد ؟ !

وهذه المفاجأة ؟ !

من يعلم بسفري في هذه الساعة الا تريب « مريم » ؟ !

يا الهي ...

هل ينعاها ؟ !

ويرتمي الفتى بعد هذه الخواطر السريعة وقد خارت قواه ثم تنتابه اغماءة : لا هي باليقظة ولا هي بالغفوة ..

والقطار يسير ...

والضباط تمر ذاهبة آيبة ..

وهو يفيق من المفاجأة ولا يملك أن يختلس فرصة لفض الخطاب ..

ولكنه يشعر أن فيه « نكبة » فيبكي لها سلفا وتحت الحساب ..

***

ويفض المسكين التعس الخطاب بيديه المتشنجتين فيجد الخط خط « مريم » دون أن يقرأ فيحمد الله

انها لم تمت ...

ربما كان الميت أباها أو أمها أو واحدا من ذوى قرباها ...

وينتعش قليلا ...

ثم يتشجع ويقرأ الكلمات الاولى فى الخطاب وهاكها :

« شكرى ...

حسنا . توجيه عادى فيه كلفة زائلة ...

ثم يقرأ الفقرة الثانية فتدوى فى القطار صرخة داوية كالتى دوت فى غرفة المكتب منذ شهور ...

ويسرع الجنود والضباط فيجدون الفتى نصف ميت فيتصدقون عليه بشىء من « الكلونيا » و « النشادر » ثم يعود اليهم برودهم الانكليزى فيتركونه وشأنه ...

« أعزيك فى ثروت الثانية ! ... »

« لقد ماتت مريم ! »

يا له من غبى . استيقظ يابنى . وثب الى رشدك . كيف تصدق وفاتها وهذا نعيها بخطها . كيف تنبئك الميتة بأنها ماتت !

يالك من متسرع . اقرأ اقرأ ! !

ويعاود الفتى ادراكه ، ويطمئن نوعا ! ثم اذا بصرخة ثانية أقوى من الاولى . واذا به يهجم على الضابط وعلى والجنود ينشب فيهم أظافره ويعض أجسامهم بأسنانه . ثم اذا به يتجه فجأة نحو النافذة يحاول القاء نفسه فى عالم الفناء ! !

ويقبضون عليه بأيديهم الفولاذية فيسقط بين أيديهم على الارض فاقد الرشد مغمى عليه . . . . . .

***

ان بقية الخطاب كانت ما يأتى :

« ان ذئبا اوستراليا اغترسنى ... »

« حاولت الانتحار وسأحاوله ... »
« خطبتك مفسوخة ... »
« الوداع يامسكين ... »

« ثروت الثانية »
« مريم ... »

. . . . . .
. . . . . .

عليل ...

في حي شبرا شارع نسيت اسمه يتفرع من شارع « شكولاني » ..

المنزل نمرة ٤ في هذا الشارع الذي نسيت اسمه منزل انيق ..

وفي ذلك المنزل الانيق ، وفي الدور الارضي ، غرفة كبيرة الجناح اعدت « لعليل » القادم من اسيوط ...

يتخصص سكان المنزل حول باب الغرفة بحذر ووجل . ولهفة وفضول ..

« شكري » مريض !

مرضه : صفرة . وهزال . وشرود ..

الثمانون كيلو هبطت الى الستين ..

الدكتور « سليمان عزمي » يعود المريض صباحا . ومساء ..

ويقول اصدقاء المريض الاطباء : انه « البرد الشديد » تارة — او « الشراب تارة اخرى — او « الخوف » حينا — او « جو اسيوط » احيانا .

طبهم جميعا خائب : « شكري » ما شكا بردا ، ولا شرب شرابا ، ولا شعر بخوف ، ولا تأثر بجو !

مرضه في « القلب . ولكنه مرض لم تكشفه يد طبيب ، ولم تنبىء به « سماعة »

كان المرض « ثروت » الاولى و « ثروت » الثانية !!!

* * *

كانت حكاية الحب وماسيه بعيدة كل البعد عن اذهان أفراد الاسرة ...

والعشاق نوعان : نوع فياض . ونوع كتوم ! ...

وعند النوع الثانى العشق سر مقدس !..
وهؤلاء هم الذين يتعذبون..
وصديقنا كان من النـــوع الثـــانى ..

* * *

وكانت وطأة المرض عليه عنيفة : كان يحب ان يستلقى على ظهره فى فراشـــه وان يستريح ... وان لايتناول الا اللبن فى الصباح، والظهر، والمساء . وكان يحب ان يدلك جسمه بالكلونيا بين حين واخر . ثم كان يحب ان لايتكلم !.. وكان هذا كل مايتمناه ..

وكان عذرا يختـــفى وراءه . ويخفى سره المعروف للقراء .. ولكن كان لابد له ان يرسل تلغرافا ولمن ؟ ! لوالد مريم ! يا للحرج . ماذا يقول ؟ ! اخذ ذهنه المضعضع يفكر فلا يجود ... لكن كان لابد له ان يفعل . وبالجراة العشاق اخذ ورقة وسطر بعد العنـــوان هذه الكلمات : « اطلب يد مريم . اريدها زوجة . أتوسل اليك . بلغها وانقذها . اعتذر عن الحضور بمرضى الشديد »

شـــكرى

وكان لابد له من رسول جاهل لا يقرا ليرسل التلغراف . وخادم المنزل توافرت فيه الصفة . فاعطاه التلغراف وزوده بالكتمان !

الاب والام !...

فى ناد من أندية الرياضة . فى مدينة من مدن الاقاليم . سألتنى مسز « والتون » هذا السؤال : أيهما أفضل زوجى ، أم ابنى ؟

قلت : لم أفهم سيدتى جيدا . عفوك ؟

قالت : المشكلة بينى وبين زوجى هى مايأتى . أنا وهو مقيمان فى القطر المصرى . وابنى «دجلس» يتعلم فى الوطن ، فى انجلترا ... والولد فى حاجة الى الاشراف والى الرقابة والى الاعـــداد . وزوجى هنا محتاج لخـــدمتى ... لمن اكرس وظيفتى ؟

قلت : لزوجك سيدتى ! وبلا تردد !

قالت : و «دجلس» الصغير !.

قلت : سيكبر ويترعرع ويشـــتد ويكد ويكافح ويطمع ويطمح ويحب ! وهو فى كل ادواره هذه لن يفكر فى « الاب والام » الا تفكيرا ثانويا ..

اما مطامعه ومیوله وکفاحه وحبه فستحتل المکانة الاولی ، والمنزل الاسمی ! ...

فی « الابناء » عقوق طبیعی . وهم ان أدوا للوالدین الواجب فبالبعد المسافة بین عواطفهم نحوکم وعواطفکم نحوهم لزوجك أولی بعطفك وحبك وغلائك ودلالك . وزوجك ابقی واوفی ، فکری وظیفتك للمسکین . ودعی الابن الزمن ...

هذا « شکری » مثل کل الابناء لا یعنیه مثل ماقد بکی لشروت ولیم ، هل فکر فی ابیه وفی امعمل ماقد فکر فی روت وفی مریم ؟ وهؤلاء السیدات النظام هل فکروا فی « الزوج العجوز » مثل ماقد فکروا فی مطامعهم ووظائفهم ومرتباتهم وسعادتهم ؟ !

العنیسا المسادیة لم تترك مجالا لعواطف الابناء نحو الآباء الا بقدر والکنها لم تمس بحال نار الحب المشتعلة فی صدور الآباء للابناء ..

وما سائل الابناء الفلاسفة فی هذا العقوق فیقولون لك بکل جراة : لم یکن علینا الوالدان الا لحظة من لحظات اللذة واللعنة مضیا بها فجئنا الی الدنیا بارغم انفهما وتحت ضغط البهیمیة الحادة ، فهی عملیة تفریخ ...

فاذا ماذکرتهم بالبناء والتضحیة فی عهود الولادة والفطام والمرض والتربیة والاعداد ، اجابوك بکل جراة : انه واجب ترتب علیهما وامر من آثار الجریمة ...

فاذا ماذکرتهم بالسعادة التی یتمتعون بها فی الحیاة وبالمرکز الحیثیة ، أجابوك بکل جراة :

أین هی السعادة ؟ ! ان الحیاة مضنیة منهکة فهی اساءة ولیست احسانا ...

* * *

هذا العقوق الملموس المحسوس لم یغیر من طبیعة الآباء نحو الابناء فبقیت کما شاء لها الله ، بلسما للجراح ، ودواء وشفاء للابناء المرضی ، والمنکوبین والمجروحین ...

وهکذا یقطع الفتی منا اشواطه المختلفة فی الحیاة فتتلقاه احضان ، وتهجره احضان ، وتنبذه احضان ، فاذا ماصرعه الکر والفر واللفه والدوران ارتمی فی النهایة بین احضان الوالدین ...

وهی احضان لا تتعب ، ولا تخون ، ولا تنکب ، ولا تتنکر ، ولا تجحد ، ولا تتدلل ، بل هی تحت أمر الابناء عندما یحل بهم الشقاء ...

هي الكهف ، وهي الملاذ ، وهي الدير ، وهي الوقاية ، وهي الشفاء ! ! !

هي معبد التكفير عن الخطايا ، وهي مورد التوبة ، ومصدر الغفران . . .

* * *

واذن الدكتور «سليمان عزمي» للمريض بعد شهرين أن يتريض ، وأن يسير باقتصاد . وان يتناول الليمونادة ، والتمر هندي ، والبرتقال وغيرها من السوائل ، فخرج من سجنه يتوكأ على عصاه ويجلس في أقرب قهوة يقدم نفسه لاصدقائه من جديد بعد أن تغيرت سحنته وبرزت عظامه وغارت عيناه . . . .

أما نزهته فكانت الى مكتب التلغراف . فهو لم يتلق ردا من والد مريم . فأخذ يرسل برقيات مختصرة مقصورة على السؤال عن الصحة تارة لابيها وتارة لقريبها صاحب واقعة النشيد . فلا يحظى برد ! . . .

السيدة مريم . .

اشفق على القراء ان اروي لهم تفاصيل الافتراس . وتفاصيل النكبة : وحش من وحوش الغابات لا من وحوش الادميين ، مزهو بقوته وحيوانيته ورصاصه وحديده ، هاجم بفرقته بيوت اعيان البلدة المفجوعة في الظلام بحجة التفتيش عن السلاح ، عثر على الفتاة في ركن من الاركان فامر باعتقال الرجال وحجز باقي السكان في غرفة . ثم اختلى بالفتاة فكانت هي ، وهو ، والشيطان ، واخس ما في هذه الدنيا من نذالة وعفونة وسقوط ! . . .

ونشبت المعركة الحامية بين الذئب الضاري والحمل الوديع . . وماذا تنتظر ؟

ان في المرور بسرعة على تفاصيل المفاجعة بلاغة يخجل امامها البيان والاطناب . . .

ولن يقوى قلمي العف على الوصف وعلى الرواية . وأقر بعجزي وأفضل أن أسدل الستار . . .

وخرجت الفريسة النبيلة البريئة المختلسة من النضال

الرصاصة السريعة هى المحققه وهى الحاكمه وهى المنفذة• والقبور
موجودة فى الطاريف وفى الزواياوهى الازقة •••

تصف مبنة . وقد شج رأسها وسال الدم على وجنتيها . وتركها الوحش الكاسر وقد فقدت حتى الامل فى الامل . . .

وجاء الاب من المعتقل وزحفت الام من الحجز وتجمع الاقارب والجيران فلما تبينوا الامر سقطوا صرعى امام الفضيحة ! ! ! . . .

والدم فى الصعيد يغلى ويفور بغير منطق وبغير تفكير . فتزحف الرجال المنكوبون على المعسكر يحاولون الاخذ بالثأر فكانت فاجعة اخرى وكانت مذبحة . . .

وعاد الاب كالمجنون يريد ان يثأر لعرضه . ولكنه لا يظفر بالمجرم اين هو ؟ ومن هو ؟ وكيف السبيل اليه ؟ . . .

اذن ليطمن وجهه ، وليضربن رأسه الحائط . ولكن كيف يشفى الغليل ؟! . . .

يا للخواطر السوداء تنتاب فاقدى الرشد والمجانين . ان الرجل الثائر لعرضه يختطف سكينه ويشحذها شحذا ثم ينطلق كالسهم الى فلذة كبده . الى المظلومة . الى الجنة العزيزة الغالية الى ابنته مريم . . . ثم يرفع يده هاتفا : ارحمنى يارب . ثم يهوى بها للقضاء على الفتاة . . .

وهو اذ يوشك ان يسفك دم ابنته بيديه . يشل القدر العادل هذه اليد الطائشة وليس بينها وبين الاحشاء الا ثانية . . .

اما رسول العدل ورسول السماء فكان شابا قويا شهما ، قبض على الذراع بأسرع من لمح البصر وانتفض كالاسد يزأر ويذود ! ! !

قال الرجل : انقذتها . . .

قال الشاب : من ابيها . . .

قال الرجل : وهل انقذتها وانقذت اباها من الفضيحة ؟!

قال الشاب : سأفعل . . .

قال الرجل : اترد العرض المنتهك ؟! . .

قال الشاب : سأفعل !!!

وهنا يرتمى الرجل من الخذلان واليأس يبكى كالثكلى . ويذرف الدمع السخين . . .

***

وتنتبه الفتاة رويدا رويدا ثم تصرخ صرخة ما اشقاها وما اوجعها . . . ثم تتوالى الصرخات بانغام الدهشة ، والاسى ، والوجيعة ، واليأس ، وحولها سيول الدموع ! . .

الجو كله وجوم . ومن يستطيع ان يتكلم ؟ بأية لغة ؟ وبأى معنى ؟...

ان المصاب يجل عن العزاء ..

الفتاة العظيمة التى كافحت كفاح الابطال، واصيبت بالرضوض والجروح لاتخضع للتجربة ، بل تنتصب واقفة وتتمتم : ليس بى شيء . أريد ان أنقية ، سأذهب الى المرحاض ...

وتذهب او تزحف الى المرحاض مبتسمة ابتسامة صفراء مكراه وبقفزة لم تدركها القلوب المحيطة بها وبمصابها ... تصل الى المرحاض بسرعة البرق الخاطف ، فتقبض على زجاجة « حمض الفنيك » وترفعها الى الفم الانيق وتوشك ان تتجرع !...

ولكن الشاب القوى الشهم رسول العدل ورسول السماء شل يدها كما شل يد ابيها ...

وهوت الزجاجة على البلاط تتهشم وتسيل !...

ثم حملها بين ذراعيه الى غرفتها واجرى لها بقوة الايمان الاسعاف بالرغم منها . ثم ارصد عليها وعلى أبيها الحرس وغاب لحظة ثم عاد ومعه قسيس ؟ ...

***

وفى وسط هذا المأتم يتقدم الشاب القوى الشهم رسول السماء الى ابيها طالبا يدها

يالله المفارقات! ويالله المتناقضات! ويالله المفاجآت !..

الشاب أستاذ مدرس يحمل أرقى الشهادات ويرتفع بنسبة وحسبه على أقرانه . فهو مطمع كل عروس . وأمل كل أب وأم

ولكن الاب يجيب الدعوة النبيلة بالرفض النبيل ...

ولكن الفتاة تستقبل هذه البشرى المنقذة باللطم وبالعويل .

يا أرق وأرقى العواطف المتبادلة : علمتك أن فى طريقك كرامة ! وفى طريقك تضحية !.

الشاب يضحى ...

والاب والفتاة تحت ضغط الكرامة يأبيان التضحية ! ...

ولكن هذا الشاب الجبار كان مستعد الكل معضلة ، هاهو ذا يوجه للاب السؤال الحازم : أمصرا نت على الرفض ؟ ...

فيجيب الرجل : بدون ترددا

فيقول الشاب : اذن وداعا .

وتنطلق من مسدسه على رأسه رصاصة تخيب ولا تصيب ! ..
وينخدع الرجل بهذه المناورة المسبوكة فيقبض على يد الشاب ويهتف : قبلت ! قبلت ! ...
ويتقلب المأتم الحزين عرساً حزيناً ، ويتولى القسيس عقد الزواج ومريم مستسلمة ؟! ..
وهكذا يبرر الشاب بوعده فينقذ العائلة من الفضيحة ويرد المرض المنتهك ... ...

واجبي !...

الهزيل العليل يخرج المرض يتوكأ على عصاه ويسير ببطء الى قهوة منعزلة في حي شبرا وكله هواجس وأفكار ...
انقطعت صلة «شكري» بالاسرة «مريم» وبأخبارها من يوم أن أرسلت له الخطاب الاسود . وكل مايعلمه هو ماورد في ذلك الخطاب المشئوم : «أن وحشا اوسترا سيا افترسها — وانها حاولت الانتحار وستحاوله — وأن خطبته مفسوخة»
لم يتردد الشاب الاصيل في أن يحول قدر ما يستطيع دون محاولة الانتحار . ولم يتردد في اختيار الموقف النبيل . فأرسل تلغرافه الى والدها يطلب الزواج من المنكوبة في أعز ما تملك ويتوسل الى الوالد في انقاذ الفتاة ولكنه لم يتلق ردا ...
وكانت في الوافع مجازفة صبيانية من «شكري» ، فان خطبة تعرض بالتلغراف لهي خطبة عجيبة ! ثم ماذا يعلم عنه والد «مريم» ؟ ماذا يعلم عنه : وعن كفاءته ، أو ديانته ، أو حيثيته ، أو أسرته ؟! لا شيء ...
ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل المريض طريح الفراش الواهي القوى . ماذا كان يستطيع أن يفعل للحيلولة دون نكبة الانتحار ولتحديد موقفه ازاء «فاجعة» ؟!
لا شيء الا ما فعل ...
هاهو ذا اليوم قد استرد شيئا من عافيته . وأصبح كفئا نوعاما للسير .. وللبحث .. وللتحري!
ولكن التلغرافات المتوالية التي لم يتلق ردا عنها ماذا كان مصيرها؟ وماذا كان شأنها؟ وهل كان أهمال الرد لنكبة وكارثة ؟ أم لاحتقار وازدراء ؟ أم لمجرد الاهمال ؟

أخذ يفكر ويفكر حتى كشف اللغز فجأة انه فى منتهى الغباء ! كان امضـــاؤه الكـريم على التلغرافات «شكرى» ؟!

ومن هو «شكرى» هذا من بين سكان القاهرة • وما هو لقبه وعنوانه ؟!

اذن «مريم» معـذورة ووالدها معذور • واذن فعل التلغراف الاول فعله بما فيه من انذار بعـــدم الانتحـار • وبما فيه من تبـل وتضحية بطلب الزواج •••

فلم يبق عليه الا أن يذهب •

***

ورد التلغراف على والد «مريم» بعد عقد الزواج بأيام • فلم يفهم منه شيئا •••

انه لا يعرف «شكرى» هذا ولا يذكره • هل يعـــرض البرقية العجيبة على زوج ابنته ؟ لا ! ••انها ســـخافة وحماقة • نفيها وحـــولها ما يمس كرامة الزوج الثمين وما قد يمس كرامة الفتاة •

اذن «مريم» وحدها التى تعرف السر •••

ويذهب الوالد بتلغرافه الى الفتـــاة — وهى لا تزال تئن من الجـــروح والرضوض ومن تأثير الحوادث المفاجئة — فيقرأه عليها فتنتفض مضطربة وتصـــدر زفرة حارة تعقبها دموع •••

— ماذا يا ابنتى ؟

— لاشىء يا والدى • ان فى الدنيا أخلاقا ! •••

— من مرسل التلغراف ؟

— منقذى فى أسيوط ! •••

يذهل الوالد هنيهة ويعاود ذاكرته • ثم كأنه يلحظ ما الناسه كريمته من ذكريات اليمـــة • ثم كأنه يدرك انه لا يدرك شـــيئا فيقر من التفاصيل فرارا ويسألها:

— أترد عليه بالشكر وبأنك قد تزوجت ؟ !

فتبتسم الفتاة ابتسامة صفراء منكرة • وتغطى وجهها بيديها الهزيلتين وتستغرق فى التفكـير وقد تجلى أمام عينيهـــا الموقف المدهش العجيب: كارثة — وزواج — وخطبة بعد الزواج — وتبل من الزوج — وتبل من الخطيب الغريب ؟!

ويحدق الوالد فى التلغراف ثم يصيح فجأة: من هو شكرى هذا انه بلا لقب وبلا عنوان • فماذا نفعل ؟ !

قالت الفتاة : لاشيء ياوالدي، انتظر وتفكر ...

* * *

وهل تدري فيم كانت تفكر « مريم » ؟!
في الانتحار وفي الانتحار ذاته،
انها بين نيران ثلاث :
نار الكارثة — ونار الزوج الشهم — ونار الحب الاول ! ! !
وكيف توفق بين هذه الاوضاع المتباينة . ان شخصيتها هي الاساس . فاذا انعدمت هذه الشخصية استراحت واراحت،
ولكنها تريد الانتحار كاملا شريفا في انتحارها . وهي لاتملك الوسائل وهي على السرير . فلتصبر حتى تملك شيئا من ذواتها . وحتى تستطيع ان تختار السهل والسريع وسائل الهلاك ...
ان الصفيرة الواهنة المهدمة ضعفت عن ان تقاوم جيوش الهم والغم والذكريات والمواقف المتناقضة . فاشتد عليها المرض وحمدت الله على اشتداده راجية ان يكون « الموت الطبيعي » خلاص من « الموت الصناعي » وخلاص من كل مافات ...
واجتمع الاطباء وتشاوروا وتداولوا فقرروا نقلها في الحال الى المستشفى في اسيوط ...
وحملها الاب المسكين . والروح النسيم الى مدينيه الذكريات الاولى . الى مدينة الاحلام والامال ...

. . . . . .
. . . . . .

رحلة . .

« شكري » يستأذن والديه في الغياب يومين او بضعة ايام من القاهرة . . مما يسألانه عن السبب فيقول : انها « رحلة » ...
رحلة ترويح خاطر واستنشاق الهواء الطلق بعد المرض ...
في محبه . ولكن اين ؟
والجواب ليس من الصعوبة بمكان . انه يستطيع ان يلفق اكذوبة محبوكة يتخلص بها من التحقيق وقد فعل ...
و « النسمة » الصغيرة الحجم التي اختارها ابدت دهشة . وقد وضع فيها بعض الحاجات الضرورية لفسحة قصيرة . وسنتعرض بعضها لهذه الحاجات الضرورية في الحين المناسب . اذ كانت بينها

« حاجة » تلفت النظر وجدت مدسوسة دسا بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله .

***

وهو يطلب عربة ويساوم الحوذى على الاجرة بحساب الساعة . اذن له جولة فى القاهرة لايعلمها الا الله ، وهو !

ويقبل والديه واخوته واخته الصغيرة . ولكن مابالله يضطرب نوعا ما ؟!.

لاشىء . انها الرحلة القصيرة . والرحلة القصيرة بعد المرض الطويل ...

***

ويسير الحوذى مسافة امتار ثم ينحرف الى اليمين فى شارع شكولانى ثم الى اليسار فى شارع شبرا ثم يستمر ويستمر طويلا حتى يصل الى ميدان «الاوبرا» ثم ينحرف الى اليسار حتى يقف امام محل « يلدز » الحلوانى ..

« يلدز » ؟!

هل يذكر القراء ان هذا الاسم مر عليهم وهم يقرأون هذه القصة؟!

أين ؟ وفى اى موضع ؟

نعم ...

فى السنة الماضية . سنة ١٩١٨ . فى الساعة الثالثة بعد الظهر . فى ساعة القيلولة او قبل الغروب ...

عندما كان يحمل من ذلك المحل هدية متواضعة لصديقة النهار . للمرحومة « ثروت » !

وها هو ذا يشترى بعض الفطائر بغير ترو وبغير تدقيق لا فى الصنف ولا فى الثمن . والعامل « الرومى » مذهول يقترح فيجاب اقتراحه . حتى تتم عملية الشراء والدفع . فيحمل الحمل الخفيف الثقيل الى العربة ويأمر الحوذى بالذهاب الى بائع زهور فى شارع المغربى فينتقى الزهور الحزينة الباكية .. ثم يأمر الحوذى بالذهاب الى سوق الخضار بميدان العتبة الخضراء فيشترى فاكهة الموسم بجميع انواعها ... حتى اذا تمت له كل هذه الصفقات وجلس فى العربة سبح فى بحر الخيال ...

ويلمح الحوذى ذلك الشرود فينبه الزبون بهذا السؤال :

ـ الى اين ياسيدى ؟!

فيجيب : الى جبل المقطم ..

***

هذا قبر القتيلة ! ...

وهذا القاتل ! ...

موقف من أتعس المواقف البشرية . وان الزيارة هي الاخرى في القيلولة وقبل الغروب ... وتغد الذكريات تزاحم الذكريات ثم تنتهي الى الصرع ! ...

ويقف « شكرى » جامدا ثم يرنمي فجأة على القبر واهي القوى ؛ مضعضع الحواس حتى يأتي حارس القبور فيسقي به ويقدم له الماء ... ويظل فنانا شاردا ذاهلا ثم يصيح : «رحماك ثروت » ...

ثم يتطلع مستنجدا بحارس القبور ويشير الى زهوره ؛ وفاكهته ، وفطائره ... فيتولاها ناثرا الاولى على القبر ؛ وموزعا الثانية والثالثة على الفقهاء الذين أقبلوا مسرعين كأنهم على ميعاد ! ...

ويرتلون ويقرأون ويدعون ويترحمون ...

ثم يشير اليهم الحارس بالانصراف وينسحب على مقربة من القبر ؛ ويترك القبر ومن فيه لزائر القبر ! ...

يطيل الكتاب القصصيون في أمثال هذه المواقف ، كفاء لا املكها أو هي صنعة لا أحذقها ، ولا افهمها ايضا ، وانا قانع بان اوجد قرائي حيث يوجد ابطالي . ثم لا يحتمل الموقف بعد هذا اطنابا ولا تفصيلا ، شاركوا المؤلف في تصويره ولا تكلفوه عناء في ابرازه جملا وكلمات وصياغة . هي حالة نفسانية أحسها كما تحسونها انتم . أليست شجنا وحزنا ودموعا ، وأنات وحسرات وأسى ؟!

ثم في الموقف شيء من الوفاء . وفاء المحبين الاحياء للمحبين الاموات !

رحمة الله على ساكني القبور ...

انهم لا يطالبون الاحياء الا بالذكرى ...

وهاهو ذا « شكرى » يذكر « ثروت الاولى » . قبل ان يرحل الى ثروت الثانية ...

. . . بل نعيش ؟ ! ؟

طالت زيارة القبر . . .
ما العمل ؟
أيعود الى المنزل وقد ودع من فيه ؟
ام يسافر فى قطار الليل فيصل فى نصف الليل الى البلدة الصغيرة فيكون محل ريبة وموطن شبهة ؟
لا . ليقض الليلة فى فندق على أن يأخذ قطار الصباح . . .

* * *

ويبيت فى فندق حتى اذا ما اصبح الصباح نهض يعيد نظرة على الحاجات التى فى « شنطته » . . .
كل ما فيها مألوف يعنى بوضعه كل مسافر فى رحلة قصيرة . ماعدا زجاجة صغيرة فيها مسحوق ابيض ؟ ! !
هذه هى « الحاجة » التى قلنا عنها انها تلفت النظر . والتى قلنا عنها انها وجدت مدسوسة بين البجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله . . .
ان هذه الزجاجة الصغيرة ذات المسحوق الابيض كانت محل عنايته وحرصه . والمسحوق الابيض كمية صغيرة . فما هو ؟
لعله « شبكة » الخطبة . أو هدية العاشق للمعشوقة ؟
سنكتشف امرها بعد حين . . .

* * *

— (. . .) من فضلك
ويقطع « التذكرجى » التذكرة الى (. . .)
وينزوى « شكرى » فى ركن من الاركان يحدق فى المصحف الصغير ويتلو كلام الله
ويصفر القطار . ثم يسير . . .

* * *

السفر طويل . بماذا يقطع « شكرى » الوقت ؟
لقد تلا كثيرا من كلام الله
فليفكر فيما هو ذاهب اليه . وفيما عساه ان يسمع ويشهد :
« لئن وجدتها فارقت الحياة منتحرة . فمندى الرد السريع !

« ولئن وجدتها على قيد الحياة فسأطلب يدها . وهى لن ترفض .

بقى أبوها وبقيت مشكلة الاختلاف فى الدين ...

« والقلب هو الدين . هكذا قالت هى ! فهل يقول أبوها مثل ما قالت ؟ !

« استبعد ! واذن ما العمل ؟ هل تفر منى ؟ تلك وصمة وجريمة لبست فى عرفنا ولا فى عرف التقاليد ...

« واذا وجدتها قد نسيت عهدها وعهدى فماذا افعل ؟ ! لا شىء ... أنسحب مقهورا وأعود بعد أن أكون قد سجلت وفائى وواجبى ! ...

« على القروض الثلاثة : انى لنفس ! ... »

ويغزوه النعاس ولكنه لا يكتحل نوما . فان افكاره . وحركة القطار ، وجلبة المحطات . وعدم توافر الراحة . ونثرة الركاب . كانت كفيلة باغلاقه من حين الى حين ...

وهو فى كل انتباهة بقلب المسألة على وجوهها فلا ينتهى إلا الى القروض الثلاثة فيقول : انى لنفس ...

* * *

يا عجبا ! ...

أندرى وقد وصل بعد طول السفر وطول التفكير ماذا قد خطر بباله ؟ ..

ان لا ينزل وان يعود ! ..

خاطر التردد هذا لا يرد عليه الا بعد ان يجلى له ميدان الموقعة ..

ولكنه ينزل اخيرا .. وهو يرتعد من هول ما قد يسمع !

ويحوطه ويحوط « الشنطة » التى بيده الشيالون ، فيسأل أحدهم باضطراب ووجل وتوسل :

— هل تعرف منزل « فلان افندى » ؟ ..

فيجيب الشيال : فلان افندى ؟ !

فيقول « شكرى » : نعم ابو « مريم » ؟ ..

فيجيب الشيال : اه .. مريم . ولدى ! ربنا يشفى ..

ويطمئن الفتى ويحمد الله ، انها لم تمت ! ..

ويقفز امام الشيال من شدة الفرح فيوقفه هذا وينبئه بانها فى المستشفى باسيوط ..

وهنا يصفر القطار مؤذنا باستئناف السير، فيختطف مشطته في الحال ويرمي الى الشيال قطعة فضية ويستأنف السفر ..

الى اسيوط

. . . . . .

. . . . . .

كان يجب على « شكري » ان يتنكر . وان يبالغ في التنكر .. انه معروف في اسيوط : في الدوائر القضائية وفي دوائر الاسر الكريمة ...

وكان لا يعنيه ان المحاكمات دائرة . وان نشيده كان محل تحقيق بقدر ما كان يعنيه ان لا يمس مركز « مريم » واسرة « مريم » بسوء ..

انه كان يجهل كل شيء . والظهور قد يجر الى مشاكل . فالحكمة تقضي بان يتوارى قدر الاستطاعة حتى يؤدي مهمته .

وقد وصل في النهار . ولئن كان المرض الطويل قد غير ملامحه فقد كان من الممكن ان يعرف وان يكتشف ..

لم تكن له الا وجهة واحدة : المستشفى ..

ولدى المستشفى طبيب وصديق . اختار ان يجعله موطن السر . ووسيلة الوصول الى المريضة ..

اخفى وجهه بقدر الاستطاعة وركب عربة الى مسكن هذا الصديق وكان يسكن وحده هو وخادمه . فلما وصل طرق الباب فوجد كل شيء لم يتغير . وشاء الحظ الحسن ان الخادم لم يعرفه ولم يذكره فسأله عن سيده فقال : انه يستريح في غرفة النوم ....

وجلس في غرفة الاستقبال . ولم تمض دقائق حتى حضر الصديق الطبيب : شاب من سنه ومن وسطه ، وزميل من زملاء المدارس الثانوية الاعزاء ..

وهذا ايضا لم يعرفه الا بعد محادثة قصيرة

— شكري ! ..

— انا هو ..

— كيف ؟ لقد تغيرت كثيرا انك مريض

— نعم ! ومهدم

— دعنا من المجاملات ، لم جئت الى اسيوط وحكاية نشيدك لا تزال حية ؟

— الضرورة احكام . وانا فى حاجة قصوى اليك ..

وجلس الصديقان احدهما ماخوذ بالفاجعة منفعل . والثانى متحفز يود ان ينهى مهمته ..

— انت فى حاجة الى الراحة بعد السفر ، والى الطعام

— اما الطعام فليست لى به حاجة . تناولته فى القطار . واما الراحة فاشعر حقيقة انى محتاج اليها يا دكتور

— اذن تفضل

ويذهب به الى غرفة نومه فيقول له « شكرى » :

— متى تذهب الى المستشفى ؟ !

— عندى « نوباتشية » الليل . من الساعة السابعة مساء ، وسأبيت هناك ..

— هل عندكم فتاة ؟ !

— كثيرات ...

— فتاة اسمها « مريم » !

— اه .. ! المسكينة

— انها فى خطر !

— زال الخطر الجسمانى . وبقى الخطر النفسانى ..

وحينئذ يهتز « شكرى » هزة عجيبة . ويسائل صديقه بلهجة حازمة عن ثقته فيه وفى اخلاقه ورجولته . فيؤمن هذا وقد تأثر من لهجة الكلام واسلوب التعبير ...

انا محام وانت طبيب وكلانا مرطن للسر وللكتمان . ايضيرك او يضير واجبك ان تجمعنى بها منفردين فى اية فترة من فترات الليل او النهار ؟ ..

— لا . انى اثق بك تمام الثقة . ومن السهل ان تراها وحدك بعد الساعة السابعة ونذهب معا ..

— اشكرك . انك تعاون فى امر مقدس يا صديقى . وامهلنى اخبرك بالتاصيل بعد المقابلة ..

ويقترح الطبيب النساب على « شكرى » ان يبقى فى المنزل حتى يحين الميعاد . ويستطيع ان يقطع الوقت فى القراءة وفى الاستراحة حتى يعود اليه . ثم يرتدى ملابسه ويخرج ...

* * *

وفى الساعة السادسة يصلح « شكرى » من شأنه قليلا . ويصل

صديقه الطبيب وقد استرد طبيعته المرحة فيمازح « شكرى » ولكن هذا يجاريه بتكلف . فيقول له : اتك متعب يا « شكرى » وليست هذه عادتك . اصارحم بالفتاة انت ؟

فيجيب : ستعرف كل التفاصيل فلا تتعجل !...

ويصلان الى المستشفى ويدخلان غرفة الطبيب الخاصة وقد شمل المستشفى سكون يناسب الموقف المقبل ...

***

ويدق الطبيب دقة رقيقة على باب غرفة المريضة ثم يدخل .

— كيف حالك الان ؟

— احسن ...

— ان حرارتك عادية منذ ايام . وقد التأمت كل الجروح . وسنأمر بالافراج عنك بعد قليل...

— اشكرك ...

هنا يلتفت الدكتور الى الممرضة فيصرفها بحجة لاتبرشكا..

— فى غرفتى زائر غريب يريدان يراك ...

— زائر غريب ؟!

— نعم شاب من سنى . يقول انه يعرفك كل المعرفة . وهو صديقى . وهو مريض . فهل تقبلين زيارته . وهل تعدينني بان تحسنى استقباله ؟

وهنا تنتفض الفتاة وتجلس بحركة عصبية سريعة قائلة :

— هو ؟!...

ويلاحظ الدكتور هذا التطور المفاجىء فيزداد دهشة من هذه الالغاز . ثم يلاحظ من ناحية اخرى ان الفتاة مضطربة مرتبكة فيخشى المسئولية ويجمد فى موقفه ...

— انا لا افهم شيئا ولا اعلم شيئا . ظننت انني اقدم خدمة . فان لم يرق لك استقباله فان يحضر !...

الفتاة لاترد ...

والدموع المتساقطة لاتنبىء عن رفض او عن قبول ...

وتهذى الفتاة فتقول : لا لا الا اقابله ...

ثم تقبض على يد الدكتور وتقول : لا لا ! بل يحضر ...

ثم تعود فتتوسل اليه ان ينتظر لحظة حتى تفكر وتبت ..

ويطول امد الانتظار ثم تلقى الفتاة براسها على الوسادة وقد

ضعفت واستسلمت ، وبصوت خافت تأذن بدخول الزائر الغريب

***

ويسلل « شكرى » الى الغرفة تسلل اللص الشريف ذى العاطفة ويوصد الباب ...

يتقدم خطوة ويتقهقر خطوة وهو لايكاد يحفظ توازنه ..

الفتاة تخفى وجهها وعينيها بيديها ...

هو يلقى بنفسه على كرسى بجوار الفراش ...

وتمر لحظة سكوت وارتباك ...

وتخرج كلمة مكتومة ضعيفة متقطعة مهتزة هى : مريم ...

ويرد الصدى : شكرى ...

نعم : هما مريم وشكرى تقابلا اخيرا وتهانفا بالاسمين .

ثم ماذا ؟!..

من يشرع منهما فى الحديث قبل الاخر ؟..

ان مهمة الفتى أهون من مهمة الفتاة : عنده الامل . وعنده الحب . وعنده النبل . وعنده الواجب وعنده الوفاء !...

اما هى فماذا عندها ؟!

عندها اليأس . وعندها الكارثة وعندها المفاجأة التى تهد رواسى الجبال . والتى تسحق قلوب ذوى الحب وذوى الوفاء !..

ويتشجع الفتى الذى يجهل ماحدث ويطاوع قلبه فيحنو على صديقته يحاول ان يقبلها فى جبهتها فتحول بين شفتيه وبين الجبهة بشجاعة المرضى وذوى السقام ...

هى محقة : انها ليست له ولن تكون له . هى اما لزوجها . واما للقبر . ولا ثالث !..

والمسكين لايدرى . يظن ان الكارثة التى حلت بها القت فى روعها ان ترفض حبه وقلبه . فيعاود الكرة وتعاود هى الكرة ..

ويأبى القدر الا ان يحسم الموقف فى هذه اللحظة . فيدق الباب وتدخل ممرضة فيتقهقر « شكرى » بكرسيه خطوتين ...

وتقول الممرضة : ان « زوجك » ياسيدتى يستفهم عن حالتك الان بالتليفون ...

فيصرخ « شكرى » هاتفا : زوجك ؟!

فتنسحب الممرضة ويخيم السكون ...

. . . . . .

. . . . . .

ان الريشة الكريمة فهمت واجبها بسرعة البرق بعد هذه المفاجأة انها رغم هزالها وضعفها تقفز من سريرها الى حيث يجلس الزائر الغريب ...

واين «هو» ؟

انه موجود . ولكنه غائب !!!

هيكل من الهياكل البشرية بقي حيث وضعوه . لا يتحرك ولا يتنفس ولا ينظر ولا يسمع . أو هو تمثال من التماثيل غير الناجحة لا يرمز الى جمال أو فن أو معنى ، وانما هو قطعة من الجماد في شكل انسان ! ...

والفتاة ؟

أتستغيث ؟ أتطلب النجدة ؟ لا . انها تلجأ الى الكلونيا فتدلك بها وجهه ويديه بحنو وعطف وشفقة وكرم ...

ثم تناديه من أعماق النفس المعذبة : شكري !

ويجيب « شكري » النداء فجأة . ثم يتماسك ويقف مجاهدا ثم يتقهقر خطوتين . وترتسم على وجهه امارات الخجل القاسي والارتياع الذعر والاحتشام الموجع . ثم يتمتم بهذه الكلمات :

ـ اعتذر ياسيدتي . اغتفري لي جرأتي . لم اكن اعلم ..

ثم يخفي وجهه بين يديه ويتقهقر نحو الباب ...

ولكن « مريم » لا تتردد . وبالصوت القديم الخالي من الكلفة والمفعم بالعاطفة تأمره ان يبقى وان يجلس ...

هو يتردد ... ولكنها تكرر الأمر بلهجة أحزم فيستسلم

***

ان الصدمة كانت قاسية على « شكري » . لم يستطع ان يتكلف في أول الامر وان يصنع . اتضح له الموقف بغتة وبسرعة فقلب خطته رأسا على عقب . ولكنه الهم موقف الاعتذار والاحتشام فجاء ملابسا للاكتشاف مناسبا للعارىء المفاجيء متسقا مع الواجب ...

وبدأ يشعر انه غريب ..

ثم بدأ يشعر انه يرتكب جريمة أدبية ببقائه في هذه الغرفة

ثم بدا له ان الموقف حرج . وان الوضع غير طبيعي . وان المركز دقيق ...

و « مريم » النبيهة الذكية تلاحقه في خواطره هذه فتقطع فترة الارتباك قائلة :

— هون عليك . ستطيع ان تتكلم طويلا ...

ثم تروى له الحوادث التى مرت . اما تكبتها فتقص عليها مرا سريعا بحركات عصبية سريعة ويساعدها « شكرى » بملامحه العزينة ونوسلاته الرقيقة بان تنتقل من موضوع الكارثة مخففا لوعتها وآلامها الدفين بعبارات المواساة البليغة حاتما جهده بقوله : هى ارادة القضاء والقدر وانت مؤمنة فاخضعى ! ...

وتنتقل مريم الى موضوع الزواج ومناظره السينمائية السريعة ولا تضن على الزوج الشهم رسول السماء بتقرير الواقع فيتأثر « شكرى » كل التأثر من رحولة غريمه ونبله وبطولته ، فيمد يده الى الفتاة ويصافحها وقد استعاد رجولته هو أيضا ويقول :

« اهنئك من صميم قلبى . ان زوجك لرجل . وأؤكد لك يامريم انى شعرت الان بشىء من سعادة النفس وراحة الضمير . . »

قالت وقد أتمت مابقى من اخبارها واخبار مرضها : « انك لمخطىء . ان الشاب تحت تأثير الحدث الفاجع ثارت عواطفه فاقدم على عمل من اعمال الخيال وعلى مجازفة من مجازفات الروايات . وعلى ضرب من ضروب البطولة التى تقرؤها فى أساطير الاولين . لم يخترنى كما يختار العريس عروسه . وانما كان الامر أمر دقائق ... وانه لمجنون ! . . »

ويحاول « شكرى » أن يعترض وان يحتج وان يناقش . فتنظر اليه نظرة حادة قاسية وتقول : « اسكت ! اسكت ! لاتقاطعنى ايها النفس انت ايضا ... جئت الى وانت مريض منهوك القوى مضعضع الحواس لماذا ؟ ماذا بقى لى من صفات العذارى واحسرتاه ؟ ... ماذا فى من جاذبيات الفتيات وقد دمغت الدمغة التاريخية الخالدة ... لا لا ! لا تقاطعنى ... حيث انت ايضا لتؤدى الواجب . لانك شاب نبيل ... مصابكما — انت وهو — انكما على خلق . أنتما تعطفان وتحسنان على منكودة . . »

وتبكى الفتاة بكاء مرا فلايملك « شكرى » الا ان يقبل يدها ويبكى هو ايضا ...

— أقسم يامريم أنك مخطئة . اطردى تلك الهواجس واعلمى انك ضحية من ضحايا الثورة ، وفريسة من فرائس الامة المظلومة هيا . هيا انهضى فحولك تقديس وحولك قلوب ...

قالت وقد قبضت على يده بشدة وقسوة وضغط : « اسمع ! لن اكون له . ولن أكون لك . سيحظى بى القبر فهو عريسى وزوجى فهيا انصرف فى الحال وترحم على ! . . . »

وتلمع عينا شكرى لمعانا غريبا ! . . .

ان هذا التصريح الخطير لم يهزه ولم يفعل فعل الصواعق على الرءوس . .

انه صمد وثبت . وبكل رزانة واتزان وتؤدة قال : أحسنت ! نعمت النهاية . . .

أخذت الفتاة بمظهره الهادىء وراعها الرد الذى لم تكن تتوقعه .

— أمتهكم ؟! أم تقلنى طفلة ؟!

قال : « لا يا صديقتى . لا يتهكم الناس فى مثل هذه الحالات المظلمة الحزينة . انا جاد لاهازل ! . . »

والفتاة بالرغم من أن قرارها الجهنمى يصادف القبول تزداد دهشة . . . ثم تزداد جزعا . ان « شكرى » لاتتم هيئته ، ولا لهجته ، ولاجملته ، عن استخفاف او استنكار . . .

ونظر فى الساعة فوجدها الثامنة الا ربعا . . .

قال : أخشى ان أكون السبب فى تأخير عشائك . . .

قالت : ليكن ! . . .

قال : هل اخترت السلاح ؟!

قالت : اى سلاح ؟

قال سلاح الموت . . .

قالت : سأختار أسرعها واحدها واقساها . . .

قال : عندى أمنيتك . كنت أعددتها لنفسى وحدى اذا كنت نجحت فى محاولاتك وسبقتنى الى هناك . . . أما الان فيالتصاريف القدر نستطيع ان نسافر معا !! !

ويخرج من جيبه « الحاجة » التى وجدت مدسوسة دسا بين البيجامة وفرشة الشعر ومشط الشعر ومصحف صغير فيه كلام الله . . .

وجحظت عينا الفتاة وتحفزت وتوثبت كالنمرة الثائرة وصاحت : شكرى ! ماهذا ؟ !!

قال بثبات وتؤدة : هذا « محركين » . سيد السموم وسهم المنية وعزرائيل العقاقير . يتناوله الكفار أمثالنا والجاحدون

امثالنا والجبناء امثالنا واعداء الله امثالنا فيرتعشون ويتقلصون ثم يموتون ! ...

وتهجم الفتاة على الفتى وقد روعها امان فى العينين اقوى من سابقه وانفذ . فيردها بذراعه الحديدية ثم يقذف بفناء الزجاجة ويدنيها من فمه قائلا :

— الرجال أولا سيدتى . وسأبقى لك نصيبك . الى بكوب من الماء ...

واذ يدنى الزجاجة ذات المسحوق الى فمه تلطمه الفتاة لطمة جبارة تطير الزجاجة من يده فينتثر المسحوق الشرير على الارض . ثم تركع الفتاة وتبكى وتتوسل وتقبل قدميه مترنمة بارق واروع وارحم ماعرف عالم الاصوات :

شكرى ... شكرى ... لانموت ... بل نعيش !!!

. . . . . .

. . . . . .

اذكرينى !

ابتسم « شكرى » ابتسامة الظافر . وأخذ بيد الفتاة الى فراشها برفق وحنان ثم نظر الى ساعته وساوره القلق اذ أخذ من وقتها أكثر مما يأخذه الزائر العادى . كذلك خطر له أنه أحرج صديقه الدكتور أكثر مما يحب . وخطر له أن هذه الزيارة الطويلة قد تثير لغطا فى المستشفى وان كان على ثقة من أن صديقه قد دبر الامور كما يجب أن تدبر ...

قال : والآن ياصديقتى اوياشقيقتى . قررت «أن نعيش» أليس كذلك ؟! ...

: قالت نعم ، من الظلم ان تموت أنت ... وسأعيش لتعيش !

قال : حسنا . أشكرك اذ أنقذتنى لوالدى ولمستقبلى ولشبابى . ويا لك من طفلة ! بل يا لى من طفل أنا أيضا ؟ لا يأس مع الحياة يامريم

ستعيشين وسيمحو المستقبل الزاهر ذكريات الماضى الاسود والحاضر المعتم . ستكونين نعم الزوجة ثم تصبحين أما .. وأولادك سوف يطردون بوجوههم البريئة . وضحكاتهم الموسيقية . وألفاظهم الاخاذة . أشباح الحوادث . وسيشغلك الزمن والواجب عن كل شىء الا عن أمومتك ...

قالت : ليفعل القدر مايشاء . أنا بنت القدر !...
قال : نحن جميعا أبناء القدر ...
قالت : بقى شئ ؟...
قال : ماهو ؟..
قالت : مابينى وبينك ...

قال : كان مابينى وبينك طيرا وسيظل الى الخلود طيرا . كان مابينى وبينك أوفى وأقدس وأعف مابين فتاة وفتى . وسيبقى الى الابد محتفظا بقدسيته ، محليابكرامته ، حيابذكرياته ، منتعشا بعذريته !.. هو الحب «البلاتونى» ياصريم . حب الخيال والسماء والاحلام . حب الملائكة . حب البقاء والبقاء !..

« انحدرين ماسوف يحدث ؟ يسجل هذا الهوى العذرى صداقة بالزمن . صداقة حلوة خفاقة فاتنسم عن بعد أخبارك وتتنسمين عن بعد أخبارى . أدعوك وتدعينى بالسعادة كلما انبثق نور الفجر ، أوودع قرص الشمس نهار الجلبة والغرضاء وانكفاح ، أو أرخى الليل سدوله على مخلوقات الله الذين يلجئون الى مخادعهم ومخابئهم فى حراسة الغضاء والقدر !...

«ثم لابد أن نلتقى . وأفضل أن يكون اللقاء بعيدا . بعد أن يخف وقع الصدمة ، وتبرد نار اللوعة ، وتخمد شعلة اللذعة ... حينذاك — ولاأدرى متى وأين — نذكر معاهد الشباب ، وحلاوة الشباب ، وأحداث الشباب !..

نعم : نعيش ياصريم ونعيش . والله كفيل بأن يشفيك ويشفينى من الفاجعة !!!

ويسكت « شكرى » منتظرا الرد فيجده دموعا هادئة تتهادى على الوجنتين وتتلاحق بكبرياء وجلال ...

قالت : أدنت لحظة الوداع ؟!
قال : بل أوشكت أن تنتهى . . .
قالت : أعطنى قلما ...

فيخرج من جيبه قلما « أمريكانيا » وتمد هى يدها الى الوسادة فتخرج من تحتها صورة لصريم الطالبة فى مدرسة الامريكان . ثم بيدها المرتعشة تخط على الصورة هذه الكلمات :

« الى خيالى النبيل ... »

« صريم »

ويأتي دوره في الاهداء فلا يجد شيئا . ثم فجأة يصطدم بزجاجة « الاسترکنين » الفارغة فيلتقطها من الارض ويقدمها لمريم قائلا :

— هذه هديتي انا . احتفظي بها فقد كان سمها هو الترياق . وكان موتها هو الحياة ! ..

ويتناول الفتى يد الفتاة فيقبلها بخشوع وحرارة ، وتشترك دموعه المتساقطة في الوداع فتترك اثرا على الجلد الرقيق ...

ويأتي دور الفتاة فلا تملك الا أن تضع قبلتها مكان قبلته على يدها . ولا تملك الا أن تمزج دموعها بدموعه على الجلد الرقيق

— الوداع يامريم ! ..

— الوداع ياشكرى ...

. . . . . .

. . . . . .

وتتبع وقع اقدامه خطوة خطوة حتى اذا ما ابتلعه المستقبل المجهول دخت الى الغرفة ممرضة تحمل ورقة صغيرة فيها كلمة ..

أما الورقة فمنه واليها ..

واما الكلمة فكانت :

« اذكريني ... »

أستشفاء !

لا أدرى تماما هل تتفق أمزجة المفجوعين في الحب . المقهورين في عالم العواطف . اليائسين من تحقيق الامال الغرامية .. لا أدرى هل تتفق أمزجتهم في اختيار الملجأ والمنفى والملاذ بعد التكبة أم لكل مزاج ، ولكل رأى ؟ ...

أنا من الناس الذين يغمرون انفسهم غمرا في بحر الواجب والعمل عند الفشل في الحب . فاذا ماحل اخر الاسبوع واستقبلت يوم الراحة وانقطعت صلتي بالعمل والواجب تحركت في نفسي الذكريات واشتعلت في قلبي النار واستولى على الالم ...

ونقرأ في الروايات وفي الاخبار العالمية العاطفية أن كثيرات وكثيرين من فرائس القلوب الخفاقة يسافرون ويستسلمون للوحدة وللعزلة اذ يجدون في ذلك السلوان ...

ونقرأ أن كثيرات يلجأن للدير ويقلعن ساعتين بالدنيا الخلابة وبالأنوار وبمسارح اللهو والسهر

ونعرف أن كثيرين من هذا الصنف المنكوب يجدون الفلاح في الضجيج وفي العجيج وفي الجلبة والضوضاء وفي المجتمعات المنشرة والسهرات التي لا يديرها العقل وانما يتولاها الهوس

الواقع أن الامزجة تختلف وان الاستعدادات تتباين ...

و«شكري» بعد عودته الثانية من «أسيوط» يفكر ويفكر وأخيرا يقع اختياره بعد طول التفكير على «الريف» ...

* * *

هذا «محمود» العربجي ينتظر سيده «شكري» على المحطة الريفية الصغيرة ذات الذكريات بالعربة القروية التي أنهكها الكر والفر وأضناها الذهاب والاياب في استقبال الزائرين وتوصيل المسافرين ... العربة التي ظلت زمنا طويلا رمز الكرم والجود ، والتي حملت فيما مضى زرافات ووحدانا من الادباء والكبراء والوزراء والحكام أيام كانت الدنيا دنيا الكرم والجود . والوفاء والصفاء . وحسن الخلال وصفاء البال ...

ولمح «شكري» أن الخيل تعثر وتتخبط من الهزال والضعف والجوع فقال ما هذا يا اوسطى محمود ؟

جرت من العربجي المسكين دمعة وقال في صوت مخنوق : من عهد ان سكنتم مصر ياسيدي وكل شيء هنا جائع وعطشان ...

قال شكري : حتى الزرع يا محمود ؟ ...

قال : حتى الرجال والنساء والاطفال ...

وانحرفت العربة تحاول أن تتخطى المزلقان المرتفع عن السكة الزراعية فتعثرت الخيل وتخبطت وتقهقرت العربة تكاد تهوي براكبها في الترعة فضرب «شكري» كفا على كف قائلا : واحسرتاه !...

هذه طلائع الريف المهجور ، الريف الذي كان زاهيا زاهرا موسرا مملوءا بالروح وبالحياة مفعما بالخيرات والبركات ؟ الريف مصدر المجد ومورد الرزق ومنبع النعيم المقيم ...؟ الريف دعامة الثروة ومنبت المجد العتيق ، والصديق الوفي والرفيق الذي لا يغدر ولا يخون ؟ الريف الفاضل عدو الرذيلة وكفيل الجمال والكمال ؟ هذا هو الريف قد خيم عليه الغيم المعتم وانتشرت فوق ارجائه السكآبة التي تسحق القلوب ! ...

ووصلت العربة الى القرية . وواحسرتاه مرة أخرى ! هذه هى التلال قد زادت تلالا . وهذه هى البرك تضاعفت بركا ، وهؤلاء هم الاطفال العراة كما نزلوا من بطون أمهاتهم لا يرتدون شيئا لان « هدمتهم » الوحيدة ... الوحيدة صيفا وشتاء فى « الغسيل ! ! ... »

ويظل الطفل بجسمه العارى العليل طول النهار حتى تغسل « الهدمة » وتنشف فيرتديها على اللحم ! ... يرتديها على اللحم بعد ان تكون قد فعلت الاهوية والرياح والعفار والميكروبات فعلها فى صدره وبطنه وسيقانه ؟ !

ويصل « شكرى » الى بيت الاسرة الحافل بالذكريات فتفد اليه وفود الرجال والنساء من القرية . اما الرجال فلينتظروا قليلا فى « السلاملك » وليشربوا القهوة حتى ينتهى من استقبال الزائرات ...

المتطوعون ؟ !

هذه « أم رجب » التى عرفها ضحوكا ثرثارة حاضرة البديهة سريعة النكتة زاخرة بالامثال ما بالها قد تغيرت وهرمت وتجللت بالسواد ؟ ! لك العزاء يامسكينة ... ابنها الوحيد قد غيبته صحارى فلسطين فكان ضحية من ضحايا السلطة !!!

وهذه « أم الخير » مثلها وانما فقدت اثنين ؟ !

وهذه « أم نعمة » مثلها وانما فقدت ثلاثة ؟ !

حسنا : حسنا : ياولايا ياثكالى لاتبتئسن ولا تحزن ففى سبيل الوطن ذهبت فلذات الاكباد ؟!!. فى سبيل الوطن ؟! ...

نعم ! ولم لا ؟! هكذا قال اقطابنا وزعماؤنا وساستنا والا فكيف رضيت ضمائرهم المصرية . وكيف قبلت قلوبهم الوطنية . وكيف سمحت عقولهم الشرقية ان تسوق ذلك الجيش العرمرم من العراة الحفاة كقطيع الغنم ضد الاتراك ومع الانكليز الى الحدود والى مابعد الحدود حيث ضحوا المهج فى وهج الشمس وظلام الليل وفى الاغوار والانجاد والهضاب والجبال ؟ !

فى سبيل الوطن لاشك ! ؟ فلما نال الوطن النصر وتقهقر العدو وفرضت الشروط على من خسر الحرب قاسية حامية قاصمة قاضية : قبض الوطن الثمن ونال الجزاء ؟ !!

قبض الثمن ذلا على ذل . وعارا على عار . واستعبادا على استعباد . وفقرا على فقر ! ..

وبقى فى البلد الاحتلال . رمزا خالدا للاستغلال ! ...

الفلاح !

— وانت يا « سليمة » كيف حال ابنك « طلب » ؟ اليوم يوم الاربعاء . هل احضرت له شيئا من السوق ؟

قالت « سليمة » وقد سرتها هذه المداعبة انها احضرت له حلاوة حمصية و« حتتين قنه »

قال : « الم تحضرى له لحمة ؟»

قالت : « لحمة ! ابنجيبها سوق وسوق لا !.. »

وامن الفلاحات الزائرات على كلامها . يأكل الفلاحون اللحم فى الشهر مرتين . واللحم فى عرفهم شىء من العظام و « الشفت » . يشترونه بارخص الاثمان من لحم الجاموس او البقر او الماعز الذى تدركه وتنقذه السكين من الام الاحتضار ... وقد يخدعهم الجزارون الفلاظ القلوب والاكباد فيبيعونهم اللحم من « الفطيس » اللحم الفاسد الذى يحمل الى جوفهم الامراض والاوبئة ... اما طعامهم بقية ايام الشهر فالعيش الذرة الحاف مع قليل من الملح . وقليل من البصل . وقليل من الفجل والجرجير والمش . وقليل من الخضار المطبوخ لا بالسمن ولا بالزيد ولا بالزيت وانما بالماء ! ! !

وثروة الفلاح فى الريف اولاد وماشية . اما الاولاد فسائل « الشمس » : هل استطاعت يوما ان تنفذ بأشعتها الى داخل الدور المبنية من الطين والطوب « النىء » والتى ابى فن مهندسيها ومقاوليها ان يجعل فى جدرانها منافذ لدخول الشعاع الربانى المطهر ؟ وسائل « الهواء » : هل كان اوسع من الشمس حيلة فاستطاع ان يتسلل ولو كالص الى هذه القلاع الحقيرة المحصنة ؟

ثم سل سكان هذه الدور : هل يفصل بينهم وبين البهائم درج البهائم فاصل ؟

هل تمتاز الزريبة عن الحضير والمصطبة والقاعة والدهليز ام الكل سواء فى الاثاث وفى الرياش ؟!

ثم سائل الانكلستوما والبلهارسيا وغيرهما وغيرهما : ماذا قيلت فى الفلاح وبيته الفلاح ؟

سل الهزيب والكفور : اين ذهب الرجال والفتيان وما الذى حصدهم حصدا حتى اقفرت الدور الا من الارامل والثكالى ؟!

اما « الماشية » فحدثينى يا ام نعمة : اين ذهب جمل عم « حسن ابو متولى » وطوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه ... واين ذهب جمل عم « سليمان القطاوى » وطوره وبقره وجاموسه وحماره الحصاوى وماعزه وخرافه ... واين ذهبت ماشية عم « ابراهيم ابو رمضان » وعم « حسين زغندح » وغيرهم وغيرهم من اعيان المزارعين خبراء الفيط واقطاب الزراع فى القرية ؟!..

— راح الخير ياسيدى ..

ذهب الخير وولى ، واقفرت مخازن الذرة والقمح فى بيوت الفلاحين البسطاء . فاذا ما بحثت عن السبب وجدته هو السبب دائما . هاجر الاسياد الى العواصم واجروا الضياع لفلاحيهم . وهؤلاء فقراء لا يملكون ثمن السماد وثمن التقاوى واجرة الرى وغيرها وغيرها من النفقات والتكاليف . وتأخروا بسبب العجز المالى عن السداد فتراكم الدين للسيد على المسود . والسيد فى القاهرة او فى البندر يريد نقودا تسند نفقات تفرنجه وتعمره ورفاهية المدنية . فهو لا يرحم لانه هو ايضا محتاج . والفيط المسكين يتحمل فى هذه الحالة اهمال الفلاح وجشع المالك . والفلاح تحت ضغط السداد يبيع ما يملك من ماشية . فاذا ما تجرد عنها تجرد عن سلاحه فمثل كرجل خبير فى الزراعة فنان ...

هذه هى الناحية المادية التى كانت نتيجة حتمية من نتائج التطور الريفى : ان ينقلب الزارع بيده من عامل الى مستأجر

أما الناحية المادية فأدهى وأمر وانكى . شعر الفلاح بنوع من الكبرياء والغرور اذ اصبح جديرا بالتعاقد مع سيده بعد أن كان رجلا من رجاله يأتمر بأمره وينتهى بنهيه . وهذا النوع من الشعور والرقى رفع قوما مستوى معيشتهم فلم يدم الارتفاع طويلا . فهوى !

هوى الاعيان وهوى الفلاحون ونضب معين الخير وضاقت الارزاق وجاءت الحركة السياسية فكان لها ضلع من سنة ١٩١٩ حتى كتابة هذه السطور ...

شغلت السياسة ولاة الامور بالتتابع من ذلك التاريخ حتى

هذا التاريخ . فخدم ولاة الامور « الحزبية » اكثر مما خدموا الامة من الناحية الزراعية والاقتصادية فاختل التوازن بين الايراد والمنصرف . واصبحت دعوى ان « مصر غنية » اكذوبة من الاكاذيب الفاضحة ومغالطة من المغالطات الدائمة !

اذن صدقت « ام نعمة » اذ قالت :

« راح الخير يا سيدى ... »

وارتفع القطن فى سنة ١٩١٩ فوصل سعر القنطار الى اربعين جنيها واكثر من اربعين ...

ثم جاءت سنة ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ وما بعدها وبدأ سعر القطن يهبط ويهبط . ثم يهبط ويهبط الى مستوى الفقر المدقع المتجسم فى الاشباح التى امامه : وجوه صفر عليلة ، خلق بالية ، عظام تكاد تكسو اللحم ولا يكسوها اللحم ... اذن ماذا استفاد الفلاحون اليائسون من ارتفاع الاسعار ذلك الارتفاع الجنونى الخيالى الغريب ؟ !

لا شىء ...

الفلاح الصغير دائما هو الفلاح الصغير . صنة اليسر وسنة العسر عنده سيان . وغريبة هذه المشاهدة فى بلادنا المسكينة . والفلاح المصرى هو فلاح العالم الوحيد الذى لا يتأثر بالازمة ولا يتأثر بالنعمة . وعندما اقول الفلاح ارجو ان يفهم قرائى اننى قصدت تلك الطبقة الحافية العارية المريضة التى حافظت فى ماضيها وحاضرها على تقاليدها القديمة وهى الجلد والصبر والعمل فكانت دائما مصدر الرزق ولكن بالمقابل ! ...

* * *

وخرج « شكرى » الى السلامك فقابل الرجال . واخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة التى موت بهم فى عهد شراء الجمال والحمير والبغال والذرة والشعير وفى عهد سوق الاولاد للعمل فى فلسطين ...

ثم أخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة بعد « الثورة » فى عهد التحقيقات والاحكام وعهد التشفى والانتقام ! ...

ثم أخذ يستمع الى شكاواهم المرة ونكباتهم الاليمة الخاصة بالارزاق والاقوات

ثم أخذ يستمع الى ذكريات عهد البر والوفاء بين السادة وبين المسودين ...

ثم خلص الى نتيجة اشتراكية بحتة ، وهي ان هذا الصنف من الآدميين صنف مجحود يقاسي شر انواع نكران الجميل ! ...

* * *

وأخذ يستشفي فتانا في الريف فلم يطق البقاء طويلا وانما أخذ يعالج جروح قلبه بالحياة الهادئة وبالوسط الجاهل الساذج ، وبالحضرة المنبسطة ، وبالنوم المبكر وبحياة الخمول والذكريات ...

ثم عاد الى القاهرة ليحيا حياة جديدة : حياة المحاماة من جديد وحياة السياسة ، وليته لم يحبها

وبجانب هاتين الحياتين انتحر — أو قل صمم على الانتحار — في حياة الحب والغرام ...

اضحك يضحك لك العالم ! ...

فعل الريف فعله في نفس «شكري» وفي نفسيته ...

وفعلت المأساة الاولى والثانية فعل الريف ...

وخلع المحامي الناشيء المنظار الاسود عن عينيه ، وصمم أن يعيش فيلسوفا وفيلسوفا مرحا طروبا مستهترا بالحياة مطبقا المثل العالمي المشهور :

« اضحك يضحك لك العالم ! »

وها هوذا قد عاد الى القاهرة وبرز في نواديها وأحزابها وقهواتها وسهراتها ومجتمعاتها ، فكان واسطة العقد ، و«سنترال» الحظ والانس والمجون الطيب البريء ...

ولكنه في مجونه ومباذله وهذره وهذيانه كان يبدو كالمجنون المتكلف المتطبع ، كان يكافح في داخلية نفسه آلامه ، ويشارك ذكرياته الحزينة ويناضل لطماته السابقة ، ويحاول أن يشفي جروحه الدامية ...

وظهر على جمهور القراء المصريين بمقال تحت هذا العنوان : « اضحك يضحك لك العالم » ، فأوصى أهله وأصدقاءه بأنه اذا مات فعليهم أن يجللوا نعشه بالزهور البيضاء والحمراء — وأن يلبسوا الملابس الزاهية الالوان — وأن يرقصوا ويمرحوا ويطربوا ويشربوا على صحته في ليلة المأتم الاولى ! ...

يصادف الشباب وصدقت نظرته الى الحياة . انى اذ أدون وقائع حياته الآن — أى فى سنة ١٩٢٢ أستعرض فى ذاكرتى عزيزاتى وأعزائى الذين ذهبوا ... وأفذاذ العالم الذين هووا الى الحضيض فى أوج عزتهم ومجدهم ... وكيف خلق القدر خاملين فجعل منهم نابهين وكيف غدر بالنابهين فجعلهم خاملين ... انى اذ أذكر ذلك واستعرضه اجد ان لا فائدة فى هذه الدنيا . وان من واجب المفكر الرزين ان يكون « قدريا » على طول الخط . عدوا للمطامع والامال . يكافح ولكن بلا شجن ولا ألم . ويسعى ولكن بلا عذاب : يكد ويقدح زناد الفكر ولا يكل ولا يمل ولكن تحت شرط : ان ينام فى الليل ملء جفونه وان لا يقول : آه ...

تلك الفتاة التى كانت تتربع على عروش جميع القلوب . وكانت حديث الشبان فى السهرات . وكانت مطمع عشرات من الخطاب . فجأة تسعل سعالا خفيفا . ثم تشحب . ثم تذوب . ثم تنتهى . ماتت بالصدر وبالعلة الخبيثة . لم اختطفها الغدر ولم يرحم شبابها وجمالها وكمالها ؟ ولم يرحم عواطف الذين اشتروا عذابهم من الدنيا بها . ولم يرحم اجماع الناس على حبها ؟ لم تموت » ! لا أدرى ... وانما شاء القدر . فابكوا واذرفوا الدمع السخين يا سخفاء !..

وذلك الشاب المتألق فى نوادى القاهرة الصاعد بسرعة البرق الى العلاء . المحمود الخصال والخلال . المدير لادارة حكومية كانت مثالا فى الدقة والاحكام والنظام يفكر فى الزواج ويختار خطيبته من أكرم البيوت واجمل الفتيات . ويمرح بها وبسيارته فى المساء الجميل يتبادلان أرق العواطف ويديران حديقة المستقبل الغناء . هذا الشاب يمتلىء بيته اعداد « للدخلة » بعد ثلاثة أيام باثاث العروس الفاخر وقد ازدحم باخوانه واقاربه يتفرجون ويهنئون حتى اذا انصرفوا ذهب الى القهوة وطلب فنجانا . ثم ارتفق بذراعه ووضع أنامله على جبهته يفكر فى تنميق غرفة الاستقبال واعداد الحمام وتهيئة غرفة الطعام ثم يسرح فى خيال الاحلام . ويأتى « الجرسون » بفنجان القهوة ويداعبه فلا يرد ... ويحركه فلا يتحرك ... ويضع يده على قلبه فيجده قد مات !

وهذا الشاب الذى نشأ فى وسط تجارى . فلما هيأت له كفاءته أن يتولى المنصب الذى يساير نبوغه ويتمشى وجدارته ،

نشر نشاطه الحكيم المتشدد ذات اليمين وذات الشمال فأثمر وانتج واتسع وأياد وزحف الى المشروعات الوطنية الاقتصادية زحف الجيش الجرار بكامل العدة النوى السلاح . حتى اذا دوى اسمه دويه ، وطار في الوطن كل مطار . أنهب فجاة رأسه برصاص المسدس فسقط جثة هامدة بين ذراعي زوجته وعلى مرأى من طفليه بغير سبب معقول ؟ !

وهذا .. وهذا .. وذاك ... والصرعى في الطريق . وفي القطار . وعلى مكاتب الدواوين . وفي القهوات والنوادي من هؤلاء ؟

هؤلاء هم ضحايا القدر بغير سابق انذار . اذن لا تساوي الدنيا شيئا . فعلام الهم والغم والحزن والشجن وعلام الآهات والانات والحسرات . وعلام الارق في الليل والكدر في النهار ؟ . ادن الى الوراء يا مشاغل الدنيا والى الوراء يا مطامع ويا مظاهر . ويا امال ويا امنيات . واهلابك يا قدر . ان « شكري » يستقبلك مستسلما ويؤسس فلسفته الجديدة على قاعدة : « اضحك يضحك لك العالم ! »

مشاريع الزواج

يلاحظ الابوان الكريمان على ولدهما الثالث انه يتخبط . فمن حزن قاتل . الى داء عضال . الى ضحكات جنونية . الى مرح مفاجيء . الى انغمار في السياسة على غير هدى وعلى غير اساس . .

ثم ها هو ذا يندفع في تيار التحرير السياسي المتطرف الملتهب المشتعل نارا . . وها هي ذي رسالاته تظهر في أكبر الجرائد اليومية الصباحية باسلوب فاز بحسن الحظ وبالحظوة ووقع من النفوس موقع الهوى والسلوى . وامتزجت فيه الفكاهة بالجد . والسكر بالحنظل . ويظهر ان سر نجاح ذلك النوع من الاساليب الكتابية يرجع الى ان النفوس كانت ولا تزال مفعمة بآلام الحياة وبأكدارها ورزاياها فهي جد توافة الى القراءة المرفهة المعزية المواسية . المرسلة ارسالا لا اتقان فيه ولا صنعة مادامت تخضع لوحي الطبيعة والسليقة لا وحي التكلف والتعمل . وداعب الكاتب فيمن داعب جنس النساء والفتيات !

ولاحظت «الام» اليقظة ان فتاها يفتح على شبابه فتحا جديدا وانه اوشك ان يندفع في تيار الاغراء فصاحت : الزواج ! الزواج !

* * *

وقفت الصيحة من نفسه موقعا حسنا فصاح هو ايضا : الزواج الزواج ! . . .

واشتغل قلم المباحث والتحريات وكانت للام اقتراحاته . وللسمات اقتراحات . وللخالة اقتراحات . وللاخت اقتراحات . وكم كانت الاذواق متنافرة . والاراء متباينة حتى سئم الخلاف فقال لهن : استرحن واتركنني اختار . . .

الخطيبة نمرة ((١))

تلميذة على وشك التخرج لا تزيد سنها على ستة عشر عاما هو فها في ليلة ساهرة بمنزل اسرتها . وكانت سهرة مختلطة اجتمع فيها رجال ونساء

ونفت نظره انها كانت لاتلتفت الا اليه . ولا تعنى الا به ، ولعله كان اصغر الموجودين وكانت هى اصغر الموجودات . والسن تجذب اليها السن ولو مع التفاوت فيها

ولاحظ بعض المدعوين انه مواياها يختلسان النظرات فسلط دعاباته عليهما . وكانت الفتاة تنتعش بالدعابة . وتلذ لها الملاحظة . فتشجع !

وكانت فتاة جمالها كله ينحصر فى تعبير واحد : رقيقة !

كانت نحيلة ، دقيقة ، سمراء ذات فم انيق واسنان صغيرة فتانة . . . ذات عينين لاتستطيع ان تحدق فيهما طويلا . ولكن مالنا ولكل هذا الوصف وهو لم يستهوه منها جمال اللون ، ولا جمال القد ولا جمال الفم والعينين ، وانما لعب بلبه انها كانت لا تنطق حرف « الراء » كما ينطق الناس حرف « الراء » ! ؟

« راء » شاذة لاهى بالراء الواضحة ولا هى « بالغين » المدغومة ، وانما نصفها من هنا ونصفها من هناك ؟ !

لاأظن مصدرها لثة الاسنان الخلفية وانما يغلب انها تصدر بعد طى طرف اللسان من الحلق .

ولمحت الفتاة الصغيرة انها لمست بأناملها قلبه ، فزادته عناية ورعاية واخذت — كربة منزل صغيرة — تعنى بطلباته اثناء السهرة . .

وفى غفلة بريئة من المدعوين اختلى بها بجوار « البيانو » فاخذت تحادثه بحديث فيه الساذج ، والماكر ، ولكنه كله خلاب . .

وتوسل اليها ان تضرب على البيانو وان تسمعه شيئا فتمنعت تمنع الاطفال . ثم رضخت رضوخ الاطفال ثم لعبت لعب الاطفال . .

***

تكررت الزيارات وزالت الكلفة وعرف سكان المنزل ، وأصدقاء المنزل ، أن علاقة « الحب » نمت بين الاثنين . وأنها تتجه بسرعة نحو الخطبة . ونحو الزواج . .

وبدأ يدرس الفتاة دراسة الزوجة لادراسة العاطفة فوجد ان الفارق كبير بين اسرته وتقاليده القديمة الرجعية . وبين أسرتها المتحررة العصرية . والفتاة كانت صغيرة فى السن وكان النزق

والطيش الصبياني صفتين لاصقتين بأحوالها وتصرفاتها . كانت في « السينما » متلاحقة الملاحظات على الشبان وملابسهم وأحوالهم . فهذا في نظرها جميل ... وهذا رشيق ... وذاك ثقيل الدم . . . وذلك وجيه !

وكانت مشغوفة بالرقص يكاد يبكيها وينغص عيشها ان «شكري» لا يرقص . وكم توسلت اليه والحت عليه ان يتعلم ليكون شابا من آخر طراز ...

وكانت من غواة قيادة السيارات وكم وبخته توبيخا ممزوجا بالالم وبالكدر لانه متاخر : فهو لا يضرب على البيانو ولا يرقص ، ولا يقود السيارات . وانها تود ان تخلق منه في أقرب فرصة شابا من النوع المعروف : « سبورت » !.

وجد « شكري » ان الفرق عظيم بين عقليته وعقلية خطيبته . وان الدراسة التي تتجه يوميا نحو « الاعماق » تكشف عن خيبة الامل رويدا !! ولاحظ في احدى السهرات ان زائرا جديدا قد طرأ على الوسط : شاب انيق من سن الفتاة . وممن يرتدون « الجاكتة الكحلية » ذات الازرار المذهبة . والبنطلون الواسع باسفل الكعب . ومن حملة « الكرافتات » ذات اللون «القوس قزحي » . ومن ذوي الشعر المكوي . وباختصار ممن يصح ان نطلق عليهم لقب « الجنس نصف ـ اللطيف » ...

ورقص هذا الشاب معها في احدى الليالي الساهرة فنظر اليهما وعيناه تقدحان بالشرر . ولكنهما والحق يقال كانا منسجمين متكافئين في الرشاقة والاناقة والسن والعقلية والمؤهلات !! ..

بدأ نجمه يأفل ونجم هذا يرتفع . وفي ليلة من الليالي انعطف «شكري» في شارع الاسرة في زيارة من زياراته . فلمح سيارة « سبورت » من ذات المقعدين تقف بكياسة ولباقة على الباب ثم لمح الفتاة والفتى قد نزلا منها بكياسة ولباقة وقد تأبط ذراعها وتأبطت ذراعه بشغف وحنان وعاطفة . فقال في نفسه : وداعا . والى الوراء !!!

ودق جرس التليفون في اليوم التالي في الميعاد فاخذ السماعة ودارت المحادثة الاتية :

هو : آلو . مين ؟

هي : أنا ...

هو : كيف حالك ؟ ..
هى : عال ...
هو : اهنئك ...
هى : بماذا ؟
هو : به ...
هى : من ؟
هو: الرشيق ال «سبورت».

ألقت السماعة بغضب . وفى الليل ذهب « شكرى » الى احد بياترات ليتناسى همه ، فوجدالاسرة فى احد البناوير . ولمح الفتاة «السبورت »والفتى «السبورت » متلاصقين فاقتحم الباب وسلم بأدب وابتسام . ثم همس فى أذنها قائلا : «أهنئك » ...

فاطرقت وقد كسا وجهها احمرار . ولم تمض شهور حتى تزوج الفتى من الفتاة .....

فتنهد قائلا : بالرفاء والبنين!.

الخطيبة نمرة ((٢))

نحن الان فى سنة ١٩٢٣ وقداستقل « الاستاذ شكرى » بمكتب فى مدينة من عواصم الاقاليم . وقد اشتغل محاميا موفقا من البارزين الذين يحق لهم الجلوس مع سعادة المدير . وسعادة الوكيل . وسعادةالحكمدار . وبزغ نجمه فى سماء الكتابة فتلهف القراء بحق أوبغير حق على رسائله فى الجرائد وبالرغم من اقامته بالمدينة التى اتخذها موطنا لحرفته فانه كان وثيق الاتصال أسبوعيا بالقاهرة

وقرأ فى هذه الاثناء رسالة اجتماعية دقيقة البحث عن الزواج فى مجلة اسبوعيةافرنجية . ذهب فيها الكاتب الذائع الصيت الى ان الزواج المؤسس على« الحب » زواج « الفشل » فيه غالب . وان الزوجية المبنية على تقدير الجديات أجدى على الزوجين وابقى من المبنية على العواطف والخيال . وهو فوق ذلك قد جرب الحب العفيف فى مأساته الثانية والحب الذى يظنه الناس غير عفيف فى مأساته الاولى . ثم اتعظ من فشل خطبته الاولى فصمم على ان يتزوج كما يتزوج آباؤه واجداده من قبل .

وبعث يخاطبه « أم هناوه »كالكشافة فى ميادين القتال ..

وفى ليلة من الليالى انعطف شكرى فى شارع الاسرة فى زيارة من زياراته فلمح سيارة من ذات المقعدين تقف بكياسة على الباب ولمح الفنى والفتاة قد نزلا منها وقد تأبط ذراعها

ويالها من سخافة ! لقد جاءته باخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله وحده أعلم بصحتها ودقتها . ثم فهم فيما بعد من قولها انها أتتهم باخبار وأوصاف وتفاصيل وأرقام الله ، وهو ، العالم بصحتها ودقتها . واعجب ما في الموضوع انها طلبت « صورته الفوتوغرافية » ! فحمد الله ولجأ الى مديته « هنزلمان » فخلق منه ـ فوتوغرافيا ـ خفة وسيمة خلابة فتانة وبارك الله في فن « الرتوش » ومهارة الفنان .. وكان لابد للاستاذ المتفنن المتهكم على كل شيء من ان يخضع خضوع المستسلمين لهذه الاجراءات وهذه التقاليد . وقيل أن سفيرة او سفيرتين من اهل المقربين يجب ان تذهبا لزيارة اهل الفتاة ، ولمعاينة الفتاة . وعجب ـ في نظره ـ أن يستلزم الامر هذا ومستخدمو « سدمان » و « شيكورين » يعاينون بدون سفيرة او سفيرتين ويشاهدون وليس عندهم الا نية البيع والشراء والمساومة والفصال »

...

وسأل الاستاذ : يا للخجل .؟ وكيف تتم هذه المعاينة ؟

قالت خالته الفصيحة : نخطر أهل العروس بالزيارة ..

قال : ثم ماذا ؟

قالت : نحدد الميعاد فيستعد العروس وتتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدي أبدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح . حتى اذا وصلنا وشربنا القهوة أو الشربات استدعيت العروس فأقبلت تتهادى خجولا وجلست بأدب واحتشام ثم يأتي دور البحث والفحص ...

قال : وكيف ؟ !

قالت : هنا اللباقة والمهارة ، فالواحدة المجربة تشرع في الحديث معها ...

وتتعمق أثناء الحديث في « أسنانها » لترى ان كانت فيها عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون . ومن الحديث نستنتج « خفة الروح » أو « ثقل الدم » ونعرف نوع « الصوت » ان كان ناعما أو خشنا أو غليظا ..

قال : ثم ماذا ؟

قالت : ... وقد تخرج الواحدة منا « سيكارتها » وتقابل الى العروس بوقح أن تشعل عود الكبريت لتتقدم لتاميح فوادها

وقصدها وتقترب . فتتشاغل لتشمل عودا آخر ولتتسع لها الفرصة لتحدق في عينيها عن قرب ، ثم تنهز السفيرة الاخرى هذا الوضع « فتطبطب » على صدرها لتلمس « تدييها » ببراعة واحكام ...

قال : كفى !

قالت : ماذا ؟ ...

قال : يا للخجل ! وأى فرق بينكن وبين « سماسرة » الخيول ، وغواة الخيول ؟ أنتن بهذا الشكل لا تخطبن فتاة وانما تشترين حصانا ! ...

وكان لا بد من هذه السفارة فتوسل الاستاذ الى سفيراته ان يترفقن بالفتاة المسكينة فوعدنه خيرا ...

ولا يعرف الاستاذ ماذا تم فى هذه المعاينة وانما تقدمت اليه تقارير متناقضة . فالسفيرة « نمرة ١ » ترى انها « بضلة » والسفيرة « نمرة ٢ » ترى انها « كاملة » . والسفيرة « نمرة ٣ » ترى انها لا بأس بها ...

وجاء دور « التحريات » عن الاستاذ وعن ماليته ، وعن سيره وسلوكه ، وعن عدد اخوته . وعن ... وعن ... وأفكه مافى الموضوع انهم سألوا عنه « مأمور قسم شبرا » ولعلهم استعانوا بالبوليس السرى عن أحواله وأسراره ... واستغرقت هذه التحريات أشهرا ثلاثة . ثم صدر القرار أخيرا بالقبول مبدئيا وجاء دور الكلام عن « المهر » و « الشبكة » وليس المجال مجال التفصيل فسخاءاته ومهازله معروفة . وفرضت أسرة العروس رقما عاليا دفعه الاستاذ راضيا . ولم يكن فى حياته الحاضرة ولا المقبلة من المادين . وكانت اتعاب القضايا فى سنتى (٢١ و ٢٢) تتدفق على جيبه فلم يكن رقم « المهر » أو « الشبكة » من العقبات ! ...

وسمح للخطيب ان يتردد على منزل الاسرة الضخم فى القاهرة، وان يقابل رب الاسرة العظيم وزوجته العظيمة . وكانت زوجته عظيمة حقا ! بل متألهة ! ...

وأوعزوا اليه أن يقدم « الدبلة » فقدمها باجراءات ومراسيم ورسميات . وحين جاء دور العمل الحاسم وقد استعد له

وتم الاتفاق على كل التفاصيل من «كتب كتاب» و «ليلة دخلة» و « فرح » استدعته الزوجة العظيمة أو الام العظيمة لمقابلة خاصة فاسرع اليها فهمست في أذنه مسائلة : اين تكون الدخلة ؟

قال : كما تأمرين ...

قالت : اعني اين تكون الاقامة؟

قال : في بلدي التي أشتغل فيها ، حيث حرفتي وعملائي ورزقي !

قالت : لا . لا . بنتي لاتعيش الا في مصر !

قال : عفوك ياسيدتي . أتعيش وحدها واعيش وحدي ؟ !

قالت : لا . ولكن تنتقل الى مصر !

قال : سيدتي . ان هذا مستحيل !

قالت : ونحن ايضا مستحيل...

ودخل رب الاسرة الفخم في هذه اللحظة . فتضرع اليه الاستاذ متوسلا و « استأنف » امام عظمته « قرار » الزوجة العظيمة فصدر نطقه الكريم « بالتأييد »!!!

وانسدل الستار على الخطبة الثانية ...

الخطبة مرة ((٣))

في يوم من الايام تلقى الاستاذ « شكري » خطابا باللغة الفرنسية من فتاة لاتتجاوز الثامنة عشرة مثقفة متعلمة كما يبدو من روح تحريرها وكما تذكر في خطابها ، والخطاب يتضمن شكوى مرة من معيشتها في منزل الاسرة . ومما تلقاه من الالم النفساني بسبب اصطدام التربية العصرية بالتقاليد القديمة ، روقعت الفتاة بتوقيع مستعار ، غير أنها ذكرت العنوان ، ومن الصدف العجيبة انه عرف العنوان وعرف المنزل لاول وهلة وعرف الفتاة . ولكنه لم يشأ ان يتعدى حده . فرد ردا موجزا يتفق وتربيته ومكانة الفتاة وأسرتها . واعدها بكتابة بحث طويل في مجلة معروفة لتستفيد الفتاة من رده الذي سوف ينشر في المجلة الشهرية . وكان الخطاب والرد — على هذا الشكل — عبارة عن مراسلة ادبية اجتماعية لاتدل على شيء ولا تنبيء عن شيء ...

وظهر البحث الطويل في المجلة وقرأته الفتاة الرافية . فرأت من واجبها ان تتشكره على نصائحه وارشاداته واتصلت به تليفونيا

وبالرغم من عصريتها وثقافتها وتمدينها كلمته بصوت مضطرب ولكنها فهمت من حديثه انه عرفها وانه يعرف أسرتها وانه يحمل لها كل احترام واجلال وانتهت المخابرة التليفونية !

وعن للفتاة فى ظرف آخر ان تكلفه ببحث آخر فكلمته بالتليفون مرة اخرى وأجابها الى رغبتها ونشر البحث الاخر ؛ فرات ان تشكره فكلمته مرة ثالثة ورابعة وخامسة ...

كانت الفتاة كما ترى مثقفة تثقيفا عاليا . ثم هى فوق ذلك كانت موسرة ومن بيت كبير . وقد تحرى الاستاذ — من باب الفضول — فعلم انها جميلة . ومن محادثاته معها تحقق لديه انها ثابتة فى خلقها . فلم يبدر منها لفظ ، ولم تخرج كلمة ، ولم تفلت جملة ، يمكن ان يستنتج منها انها من ذوات النزق او الطيش او التسامح فى القواعد الاخلاقية التى تزين الفتاة ...

احب فيها هذا التحفظ وهذا الاتزان على صغر السن وصغر التجربة . واغراه انها تعرفت اليه من طريق الادب البرىء والبحث البرىء . ثم راى فى شكاواها المنزلية ما يستحق العطف ويستحق التقدير فكر فى أن يتشجع ، ومر على ذهنه خاطر الزواج ...

وشاءت الظروف الطيبة ان تنتقل الفتاة وأسرتها الى الاسكندرية فى الصيف . وان تقطن بجوار منزل من منازل افراد اسرته المقربين اليه . واختلطت الاسرتان وامتزجتا ، وجاء ذكر الاستاذ على لسان الفتاة ...

ثم تفاقم الحديث وتوغل فجرى البحث من ناحيتها عن اخلاقه . وعوائده وروحه . واستعداده للزواج . ففهمت القريبة ماشاء لها ذكاؤها وقرظت قريبها احسن التقريظ ...

وكانت المباحث وفق مرامها فطربت ولم تستطع أن تخفى سرورها وانكشف الموقع فانتقلت المحادثتان مباشرة الى « مشروع الزواج » ...

***

وبلغت التفاصيل الى الاستاذ فبرق بالموافقة من غير تحفظ ومن غير قيود . واستمر تزاور الاسرتين والموضوع هو حديث الايام والليالى على أن تتم الاجراءات فى القاهرة ! ...

***

وكنا قد وصلنا الى اواخر سنة ١٩٢٢ وقد خلق الانكليز للبلد « برلمانا » و «انتخابات» وشرع الاستاذ يعد نفسه لخوض غمارها . فظهرت الفتاة من المشاعر مارسخ فى ذهنه انها سوف تكون حقا الزوجة المسعدة والشريكة التى يضمن بمعاونتها صفاء الحياة ...

ولامر ما انقطعت المخابرات التليفونية وانقطع الاتصال فظن انه لابد وان تكون بارحت القاهرة الى مزارع الاسرة فى اقليم ناء بعيد ...

***

وكان قد نصح لها ان لاتكاتبه وذلك كان مبدؤه الذى اذاعه . فان امقت ما كان يمقت أن تسرف الفتاة فى الخطابات التى قد تكون يوما ما سببا فى اشكالات واحزان

ولكن الزمن طال وأصبح من غير الطبيعى أن يكون الانقطاع . طبيعيا ...

ومن السهولة ان يتحرى عما اذا كانت بالقاهرة اولا ...

وقد تحرى فعلم انها لم تغادر القاهرة !

ماذا ؟!

لابد من ان ينكشف السر !

***

وجاءته بوستة الصباح بعد اسبوع فميز من بين الخطابات خطاب فخما مزخرفا تبدو عليه الوجاهة ففضه بشغف على اعتقاد انه منها ...

كان منها حقيقة ولم يكن منها ، كان من ناحيتها ، كان من حولها ، لانه كان عنها وعن مصيرها ...

كان بطاقة دعوة لحضور حفلة زفافها من فلان ابن فلان ! ! !

وسقطت دمعة هى دمعة « الكبرياء » ولكن سرعان ماسحقها بأنامله الفيلسوفة . ولكنه لم يستطع أن يطارد الالم النفسانى الذى انتابه دون قد جرح فى عزته بغير مبرر وبغير سبب .. وتساءل : هل من الانصاف — على كل حال — أن يفاجأ هذه المفاجأة القاسية ؟ !

وهل كان من الضرورى أن يدعى لحفلة الزفاف ! ؟

اذن لابأس !

بالوفاء والبنين انت ايضا ..

الخطيبات عمرة « ٤ ، ٥ ، ٦ »

لقد عتب عليه أقاربه أنه لم يوجه رغبته الى أسرته ، فوقع من نفسه الاحتجاج موقع القبول . ولكن الاسرة القديمة لها تقاليد أمنع من أن تنال ، ولها أسوار من فولاذ لاتقوى على مهاجمتها الافكار العصرية . السفور في هذه الاسرة جريمة ، والحب كفر ، والاختلاط بين الفتى والفتاة عار ! . . .

وبالرغم من ذلك اختار الخطيبة الرابعة ، وجرت محادثات هامسة مكتومة قدسية لاهوتية جديرة بالهياكل والاديرة ، لم ؟! لان الفتاة يوم أن ولدت كان قد تكلم عنها أهل الفتى الفلاني يوم أن ولد ، وصدر العرض من هناك والقبول من هنا . وكلام الاشراف شرف ولو كان عن طفل وطفلة في سني الرضاع ، اذن ليظل كل شيء في « السر » خافتا ، مينا ، طويل الامد ، خوفا على عواطف الاسرة الموعودة ، وحرصا على كرامة الاسرة الواعدة ؟ ! . .

وأين الفتى ! ؟

هو لا يزال يتعلم ، فيجب الانتظار حتى ينهم دراسته ، ثم يجب الانتظار حتى يكون مستقبله . ثم يجب الانتظار حتى يتكرم فيقول : لا ! . . .

وحينئذ تتحلل الاسرة الواعدة من وعدها . وتصون كلمتها . فتصبح اذاعة الخطبة ويجوز الاعلان ؟ ! ! ! ويرفض صاحبنا كل الرفض هذه « الرهينة » ويبحث عن الخطيبة الخامسة . . .

وهي فتاة استأثرت بالجمال والكمال دفعة واحدة . وكانت غير مرتبطة بوعود أو بعهود . وقطعت الاجراءات شوطا بعيدا وسريعا . وأوشك كل شيء أن ينتهي وان يتحدد . ولكن ! . . .

لكن في آخر لحظة اصطدم حظ أستاذنا العاثر بمشكلة « الرضاع »

وجاء دور الخطيبة الاخيرة ولها حكاية طويلة تلخص في جملتين : « ان الزواج قسمة ، وربنا ماقسمش » ؟ !

***

وسخ في ذهن « الصاحك الباكي » بعد هذا التاريخ الزواجي الطويل أن الحكاية « مقصودة » من القدر ، وان القضاء والقدر لا يريدان أن يتزوج ، واحترام القضاء والقدر فرض وأمر واجب الطاعة ! . . .

دستور وبرلمان

أن صيف سنة ١٩٢٢ كان شيئا جديدا فى حياة مصر ... تمخض تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ عن شىء ظريف اسمه « دستور وبرلمان » ...

رقصت بعض الاحزاب وطربت واطلقت الزغاريد واقامت الزينات ورقمت الاعياد فى رسمياتها . وكشرت بعض الاحزاب عن انيابها ولبست السواد ونادت بالويل والثبور وعظائم الامور واعتبرت تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ نكبة ؟!

ونشبت المعارك ودار الطعن والطحن والضرب والنزال والنضال حتى نادى المنادى فى البوق ان هناك « انتخابات » فاذا بالاحزاب الضاحكة والاحزاب الباكية تقبل على الانتخابات ؟

والنيابة عن الامة شرف اى شرف ، ثم فيها ايضا « مرتب » ..

وفيها أيضا « ابونيه » ...

وفيها أيضا « حصانة » ...

وفيها أيضا نفوذ وجاه ...

وفيها مطامع وآمال ...

***

كانت « النيابة » المودة الجديدة للفخفخة والنفخة وحب الظهور ، كانت رتب الباشوية والبيكوية هى مطمح الانظار فيما مضى . اما فى تلك السنة فقد بطلت المودة القديمة وحلت محلها المودة الجديدة : النيابة عن الامة ! ...

وانكمش الانكليز « الغلابة » فى معسكراتهم ومنازلهم و « قصر نيلهم » و « قلعتهم » و « عباسيتهم » و « أبو صويرهم » خائفين يرتعدون ويرتعشون خوفا من الوحش الفاغر فاه والقادم عليهم بعد حين : البرلمان !!!

ذلك ماتراءى لكل مصرى فى اليقظة لا فى المنام .. فى العلم لا فى الحلم . فى الحقيقة لا فى الخيال ..

وكانت المناصب الوزارية محتكرة فى وسط معين ، وفى شخصيات

سعيدة . أما اليوم فالمودة جديدة أيضا . والنيابة عن الأمة ستكون مزلقا أو مرقى الى العلا والى السماء ...

اذن هيا ياجيوش المؤملين الطامعين الطامحين فارحفن . . . ارحفي واستميتي وابذلي وحاربي وكافحي وضحي وابذلي المستحيل وغير المستحيل حتى تفوزي بالكنز الثمين . والمجد المتين . والنصر المبين ...

وافتتح ابليس اللعين معركة الانتخابات فضاعت أسر . وضاعت روابط . وضاعت تقاليد . وضاعت ثروات ! ...

***

اقتحم الاستاذ دائرة من الدوائر الانتخابية له فيها عصبية وقرابه وحوار . ولكنها لم تكن من دوائر اسرته المضمونة . تلك احتلها أقرباؤه المقربون . وكانت سنه دون السن القانونية بسنتين . غير أنه كان من ساقطي القيد في اقليمه فانتهز الفرصة وجال جولته الاولى وحيدا ليجس النبض فاستقبل بالترحاب في كل دار وفي كل مكان الوجوه كلها باسمة . والعواطف كلها فياضة بالاعجاب والتقدير . ولكنه لم يكن من حزب « سعد زغلول » العظيم . وكان الرجل الفذ قد غمر القطر كله بسحره وسلطانه . وكان مرشحه في الدائرة رجلا معروفا . له ثروة طائلة وضياع كثيرة . وله مقر وله روابط . ولكن الشاب لا يجفل ولا يتردد ، ولم يكن هناك متسع للاختيار فأقدم ! ...

وكان المحامي الناشيء قد جمع ثروة صغيرة من ربحه الخاص . لا تزيد على خمسمائة من الجنيهات . ودخل المعركة متسلحا بعلمه — وشهادته — وحظه الصحفي السعيد — والخمسمائة من الجنيهات ! ...

أما « منافسه » فلم يكن الا من ارباب الضياع ...

***

كانت وسائله الخطب والبيانات . . .

وكانت وسائل خصمه الخراف . والمجول والديكة والفراخ والحمام والطعام والشراب ...

وكان اعتماده على كرامة العلم وحرمة المبدأ ...

وكان اعتماد خصمه على « سعد زغلول » ...

وزحف موكبه الصغير الى القرى والكفور والعزب فكان

يشرب في اليوم أكثر من سبعين فنجانا من القهوة . وكان يأكل أكثر من عشرة ارطال من العجوة . وكان لا يملك أن يرفض هذا الضرب من ضروب الاكرام والا عدوه متعجرفا عديم الاصل جاهلا بالاصول ؟ !

وهزم المحامي الناشيء هزيمة « مبلوعة » بعد أن جيش عليه منافسه جيشا عرمرما من أقطاب الوفد وخطبائه . فأضاع وقته وأضاع الخمسمائة من الجنيهات ؟ ! . . .

***

وعاد الاستاذ الى مكتبه الريفي يحاول اصلاح ما أفسده الدهر وأفسده الانتخاب . وراجع حسابه في البنك فوجد الرصيد صفرا ! ! !

وفي ليلة من الليالي السوداء الممطرة انتابته السويداء . وهو قد اعتاد في الليل أن يعاشر جدران الغرف والكتب وملفات القضايا . . .

ولكنه في تلك الليلة شعر بألم الوحدة وشعر بأنه ثائر على كل شيء : على نفسه — وعلى واجبه — وعلى مهنته — وعلى حاضره ومستقبله . . .

وكان عائدا من القاهرة . وتذكر وقد انتصف الليل انه لم يقرأ بوستة الايام الماضية . فلجأ اليها علّه يجد بينها ما يخفف من لوعته وأشجانه . . .

وفض الخطاب الاول فاذا به من متعهد حفلاته الانتخابية في الدائرة يطالبه ببقية حساب قدرها عشرون جنيها ؟ ! . . .

وفض الخطاب الثاني فاذا به من شاب سعدي يهنئه فيه بالسقوط ؟ !

وفض الخطاب الثالث فاذا به من مخلص آسف يكشف له عن عيوب قانونية في اجراءات الانتخاب ؟ ! . . .

وفض الخطاب الرابع فاذا به من موكل يخطره بأنه تصالح مع خصمه ويطلب اليه رد ثلاثين جنيها قيمة مقدم الاتعاب ! . .

أما الخطاب الخامس فكان من عائلة منحوسة تدعو له بطول العمر وتطلب اليه ان يمدها بالاحسان !

ورفع الخطاب السادس فاصطدم بخط دقيق أنيق اضطربت له حواسه وتفتحت له عيناه . . .

واقتحم اللورد ألنبى بجنوده دار الحكومه المصرية وقرأ انذاره الرهيب على رأس سعد زغلول

ان الخط يعرفه . . ولكن لمن ؟
انه خط . . ولكن ليس من خطوط الرجال . .
انه من سيدة ! فمن تكون ؟ !

***

والله انها لحكمة !
كان من الضروري جدا ان يخلق الله صنف النساء . .
لهن في الازمات دور لا يلعبه غيرهن ولا يجيده غيرهن . .
انه لم يعرف بعد ممن الخطاب ولا ماهو مضمونه ان كان خيرا او شرا . .
ولكنه حن للخط وحن للنساء . . .
وفي الشدة التي هو فيها . وفي الوجيعة التي يقاسيها . شعر كان عاملا من عوامل الانشراح قد طرا والسلام . .
واخذ يفض الخطاب برفق ولين وروية ثم قرأ ماياتي :
« صديقي شكري :
« ان كنت لم تعرف الخط بعد فلا تتعجل ولا تسرع الى الامضاء . . .
« أنا صديقة قديمة . بل كنت اكثر من صديقة . وقد سمعت بنبأ سقوطك في الانتخابات . وفهمت بالبداهة انك ستكون معدم الخاطر مظلم النفس . فرأيت من واجبي ان افعل شيئا رغم ظروفي ورغم بعدي عنك وبعدك عني . وماذا أملك ان افعل ؟ لاشيء الا ان اكتب اليك هذه الكلمات . . .
« ولست أدري ما الذي حملني على الاعتقاد بان كلماتي هذه ستكون لها مكانتها في نفسك وفي قلبك كما كانت منذ سنين ! . .
« الا يدهشك انني اخاطبك كأني — لا ازال — من ذوات الحقوق عليك ؟ أغتفر لي جرأتي فمن يدري ؟ لعلك نسيتني واعاني اكون مبالغة في اعتدادي بدالتي عليك . سواء أكان قدري عندك غاليا ام رخيصا فاظنك لاترفض كلمة مواساة وتشجيع من صديقة لانزال تشعر بان عليها واجبا نحوك في أوقات وجيعتك والمك . وكم كنت احب ان أعلم مبلغ وقع هذا الخطاب في نفسك . ولكنني أعلم انك لاتملك ان ترد .
« انني اتتبع اخبارك بقدر مانسمح به الاخبار العامة . وثق — يا شكري — واسمح لي ان اخاطبك بغير رسميات . . انني لن أنسى وفاءك ولا عفتك ماحييت . بل لقد بلغ من جرأتي انني

رويت لزوجي كل حكايتي معك . وبهذه المناسبة أخبرك انني سعيدة وانك كنت نبيا مستفيضا تنبأت لي بأنني سأنسى فجيعتي .. ولنا ابنة صغيرة جميلة تحدق في بعينيها الجميلتين وأنا أكتب لك هذا الخطاب . وهي هادئة هدوءا ملائكيا على خلاف العادة . كأنها تعلم من طريق الالهام انني أؤدي واجبا مقدسا نحو عزيز على لا أنساه ولا أنسى ذكرياته ونبله ..

« اذا كانت مكانتي لاتزال كما اعهد في نفسك فاني واثقة أنك ستنسى مرارة التجربة الانتخابية الاولى ..

« عدني اذا طافت بك ذكرى هذا الفشل أن تذكرني . وأن تنسى . وأن تهش . وأن تبتسم ...

« ثم عدني أن تذكرني دائما الى أن نلتقي على وفاء كما افترقنا عن وفاء ... ولك تحياتي .

من المخلصة
« مريم »

(١) برلمان سنة ١٩٢٤ — ١٩٢٥

في يناير سنة ١٩٢٤ — أو حوالي هذا الشهر ان لم تخني الذاكرة — شكل زعيم الامة وقائد جيش الكفاح ضد الانكليز الوزارة ..

وكانت وزارة أثارت العجب وأحدثت في تقاليد البلد الوزارية حدثا جديدا . انبعث منها رائحة الديمقراطية واختفت بعض « الافندية » ...

محاولة جريئة تعمد فيها « سعد زغلول » أن يهشم التقاليد القديمة فنجح !! .. وان يذيق « الشعب » طعم الحكم فنجح !... وان يبرهن على أن الامة « مصدر السلطات » فنجح !...

وتوارى « الانكليز » فهلل الشعب وكبر . وطار الناس في جو الاماني والخيال فصعد الى السماء ، وطار لزا الجوزاء ...

لم لا ؟!...
بلد مستقل !
وزارة شعبية !
دستور وبرلمان !

سفارات وقنصليات !...

وفي منتصف مارس وقف « شكري » الراسم في الانتخابات في ميدان قصر النيل يتفرج على موكب النواب والشيوخ ورجال الدولة الذاهبين لافتتاح « البرلمان » فصفق مع المصفقين وهتف مع الهاتفين . وتمسح حماسة مع المتحمسين ، ولكن قلبه رغم كل هذه المراسم والمظاهر كان يقول له : لا ! ..

« انها نفخة كذابة ...

« انه طبل أجوف ...

« ان البرلمان خدعة انجليزية ...

« ان النظام البرلماني ، والحكم الشعبي ، مع الاحتلال ، حقنة من حقن « المورفين » ..

***

وكان من الطبيعي أن تقصي الوزارة الشعبية الموظفين في العاصمة وفي الارياف ممن لم يكونوا من لونها .. والا فكيف تطمئن لهم وكيف تعمل ؟؟ وهكذا عزل البعض ، وحوكم البعض ، وأحيل البعض على المعاش .. فتولدت حزازات وضغائن وثارات ...

وكان من الطبيعي أن يندفع النواب في سبيل التظاهر بالسلطة ... وهم معذورون فالتجربة جديدة وهم لا يزالون « تحت التمرين » ... وهكذا طفت السلطة التشريعية على السلطة الادارية فكان النواب مديري أقاليم ، ورؤساء مصالح ، ومديري ادارات . فارتفعوا بأنصارهم وعيلاتهم وكتموا انفاس منافسيهم وخصومهم ...

وتولدت حزازات وضغائن وثارات ...

وتوارى « الانكليز » وراء كل هذه المظاهر يشربون « الويسكي » على صحة نجاح التجربة !!!

وانشغل البلد التائر لقضيته ضد الانكليز ، « بالبرمان » ؛ عن القضية وعن الانكليز !..

فكانت اللعبة الجديدة ابدع ابتكار جادت به قرائح دهاة بريطانيا في القرن العشرين !..

***

اما « اللعبة » الاخرى فكانت هي ايضا ظريفة : المفاوضة ! جربها « سعد » مرة فانتهت بالفشل !

وجربها « عدلى » مرة فانتهت بالفشل !

وهاهو ذا « سعد » فى سنة ١٩٢٤ يجربها مرة اخرى ...

وسافر الزعيم يحمل آمال امة : فيه وفى « مكدونالد » العادل المنصف !!...

كانت مفاوضة ما اقصرها وما اوجعها ...

جرحت فيها كبرياء الزعيم . وكبرياء الامة . وانتهت فى لمح البصر بالفشل !!!

وبدا رد الفعل القاسى يحدث اثره فى نفوس الجماهير الساذجة: ماذا فعل البرلمان ؟ ونم ينسحب الاحتلال ؟ واين اين السودان ؟

واخذت الاحلام تتلاشى وتبددها اليقظة ويطردها نور الصباح!

(٢) برلمان سنة ١٩٢٥

حدثت حادثة السردار المشئومة فقامت القيامة واقتحم اللورد اللنبى بجنوده دار الحكومة « المصرية » وقرأ الانذار التاريخى الرهيب على راس « سعد زغلول » ثم توالت الحوادث بسرعة البرق . فهوت وزارة الشعب وهوى برلمانها ودستورها. وتألفت وزارة مختلطة من حزب الاحرار بناة الدستور وحزب الاتحاد الذى ترعرع فى هذا العام واشتد وصال وجال . ثم جرت الانتخابات على يد « صدقى » فحاصر الزعيم وحبسه فى داره وخفت صوت الشعب . وحدث ائتلاف بين الاحزاب الكارهة لسعد زغلول ، ووفد سعد زغلول

وجرت الانتخابات على هوى الوزارة القائمة وتكون « برلمان سنة ١٩٢٥ » ولكن !..

ولكن كانت ايضا الاغلبية للوفد !!...

واكتسحت الامواج موظفى الوزارة الشعبية وانصار الوزارة الشعبية فاصبح كل مدير بلونين، وكل عمدة بثلاثة الوان ، وكل وجيه باربعة او خمسة الوان ..

وانعقد مجلس النواب ومجلس الشيوخ ثم جرت انتخابات الرياسة فكان « سعد » رغم كل ذلك الاعداد هو المتغلب !! ...

وفى ساعتين اثنتين حل مجلس نواب سنة ١٩٢٥ فكانت مهزلة تاريخية وسخرية دستورية عديمة المثيل !!!!

وتجلت اللعبة الانجليزية الدستورية البرلمانية مرة أخرى بشكلها الضحك المخجل الظريف والناس - بعد - لا يفهمون ولا يعقلون ! ...

* * *

وجاء دور « الاحرار الدستوريين » .. ولم يدم ائتلافهم مع حزب الاتحاد طويلا فقد حدثت حادثة كتاب « الشيخ على عبد الرازق » فقذفت بهم وبحزبهم من حالق « واخلى طرفهم » فى الحال وأسدل الستار على برلمان سنة ١٩٢٥ بعد ان ابتلع اموال المرشحين ، وبعد أن نكبت الامة نكبة جديدة فى اخلاقها وروابطها وهنائها ...

* * *

ونسى الناس الانجليز ، والاحتلال ، والحرية ، والاستقلال ، وتضاربوا حول كراسى الحكم وحول مقاعد البرلمان ؟! ...

وتمخضت مصر عن ائتلاف عظيم خطيرين الوفد - والاحرار - والحزب الوطنى

... وتجلت اللعبة الانجليزية مرة أخرى فارخت الحبل «للائتلاف المتيد» فدحر خصومه وقسمت الدوائر الانتخابية على أحزابه الثلاثة

وجرت الانتخابات فى سنة ١٩٢٦ ففاز « الاستاذ شكرى » بالتزكية واصبح عضوا فى مجلس النواب ! ! !

(٣) برلمان سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٨

برلمان حافل بالشخصيات الضخمة من جميع الاحزاب . اما « سعد » فقد تجهم له الانكليز واشترطوا ان لا يكون رئيسا للحكومة ! ...

واقام له النواب المنتخبون حفلة شاى فى نزل الكونتنتال لتكريمه . ولكن ظهر انه كان هناك غرض خفى ، فقد قام بعض أنصاره ينصح له بعدم قبول رياسة الوزراء ، فنهض الاستاذ « شكرى » يعارض الفكرة ويقول انها تحقر ورضوخ من زعيم الاغلبية لارادة الانكليز ، وقام طبيبه الخاص فأيد النصح بالتخلى عن الحكم ، ثم قام « سعد العظيم » وقال ان صحته لا تساعده على العمل فى رياسة الحكومة ! !

وانكشف الستار وضرب الانكليز الائتلاف أول ضربة فنفروا ارادتهم واقصوا زعيم الاغلبية من الوزارة فتولاها «عدلي يكن».

وكان برلمانا حافلا بالعظماء غنيا بخطبائه وجهلائه وزحفه . ولكن لا على الانكليز .. وانما على الحكم السابق ، وعلى الاحزاب السابقة ..

أما قانون العمد — وقانون السلاح — وغيرهما وغيرهما فقد لعبت بشأنها السياسة الخفية ونفذت مشيئة الانكليز ...

ومات سعد وبدأ عقد الائتلاف في الانقراط وانسحب عدلي وثروت .

وجاء « مصطفى النحاس » فضربه الانكليز الضربة القاضية بحكاية « قانون المظاهرات » فاشتد البرلمان واحتد وتجهم وكشر عن انيابه .. ثم ؟ ثم ؟ ثم تقهقر بغير انتظام وانكمش أمام البوارج والمدمرات والطرادات ..

ولعبت الدسائس وانسحب محمد محمود وأقبلت الوزارة الشعبية وحل مجلس النواب ووقف الدستور ..

ولعبت اليد الحديدية المحمدية المحمودية دورها فبطشت واقصت وقربت . وفاوضت المفاوضة الخامسة بعد مفاوضة ثروت الرابعة ثم فشلت وانهارت وتوارت عن الانظار ..

(٤) برلمان سنة ١٩٣٠

وانتصر الشعب مرة أخرى وتولت الوزارة النحاسية الحكم وفاوضت وفشلت للمرة السادسة . ثم أرتطمت بقانون محاكمة الوزراء . واستقال النحاس اسم ثقالة لاتخلو من المؤاخذة السياسية . وتجلى « صدقي » في الميدان

(٥) برلمان سنة ١٩٣٠

وعدل الدستور وقانون الانتخابات وكون مجلس النواب الخامس والقراء يعلمون جميع التفاصيل فلا داعي للاشارة اليها . ولا يعلم الا الله مصيره

* * *

هذا هو المرور السريع على نظامنا النيابي . والدستوري .

والحكمى رأيت من واجبى ان أدونه فى هذه الصفحات ليكون القراء على ثقة من ان «الدستور والبرلمان» لعبة انكليزية مكشوفة شغلت زعماءنا عن القضية العامة ، الى قضيتهم الخاصة .. وحولت جهودهم من ان تتجه ضد الانكليز الى ان تتجه ضد بعضهم بعضا

وكانت هذه اللعبة نعمة وبركة عى انكلترا ووبالا على مصر وعلى مرافقها الحيوية . ومصالحها الاقتصادية واحوالها الاجتماعية، فتدهورت جميعا وهبطت للحضيض !. .

ولا تزال الاحزاب تتناحر حول الحكم ولمن يكون ؟ وحول الكراسى النيابية ولمن تكون لاولا يزال المصرى هو عون الانكليزى ضد المصرى ، ولا تزال الفوضى ضاربة الاطناب

اما الاستقلال ..

واما الاحتلال ..

واما القضية المصرية ..

فسلوا عنها ضحايا سنة ١٩١٩ ، وسلوا عنها الخيال ؟ ! !

. . . . . .

. . . . . .

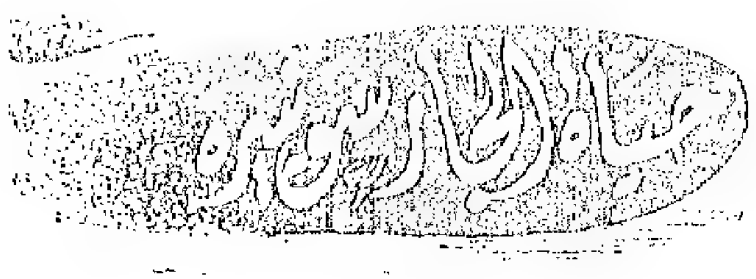

ان النائب المحترم قد ارتدى في صباح يوم من أيام سنة ١٩٢٦ بذلته الرسمية الانيقة هو وأحد زملائه النواب ليحضروا جلسة افتتاح البرلمان العظيم.

واقلتهما سيارة فخمة سارت تتهادى بين الجماهير الحاشدة، بين رجال البوليس والمدافع الداوية وبين الهتاف الحماسي المرتفع للسماء. فكانت الساعة ساعة من ساعات العمر النادرة فيها كل عناصر الزهو والفرور، والاعتداد بالنفس. والطموح الى العلا ..

وفي دار البرلمان وجد النائب المحترم نفسه بين عظماء البلاد وكبرائها وقطابها والقابضين على زمام الحكم. ثم شعر لاول مرة أن هؤلاء جميعا سيكونون تحت رقابته وتحت هيمنته وسيطرته. ثم رفع بصره فوجد شرفات البرلمان حاشدة بسفراء الدول والصحفيين الاجانب وعقيلاتهم ثم بالامراء والعظماء وكبار ذوي الحيثية من النساء والرجال

وزاده غرورا وسعادة ان كان أصغر أعضاء البرلمان سنا فجلس بجوار سعد زغلول واستقبل في السراي الملكية عملا بالدستور وفخم أمره وكبر. وكانت له في البرلمان بعد ذلك جولات وصولات ليس هذا مكانها وانما نحن نسرد قصة اجتماعية أكثر منها سياسية. فلنهمل السياسة من الان فقد اضحكت وأبكت « الفساحك الباكي » وهو اذ يذكر اليوم تاريخه السياسي يخلص الى نتيجة محققة أدركها قبله شاعر مصر القومي رحمه الله اذ قال :

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم هي أمة تأبى وشعب يأسبا ..

* * *

كان لابد للنائب المحترم من ان يسكن في القاهرة حيث مجلس النواب. ولما كانت عائلته مكونة منه ، ومنه ، ومنه ، فقد ..

فقد اتفق مع احد اقاربه الاعزاء الذين مزجوا بين عاطفتي القرابة والصداقة فاشتركا في استئجار «شقة» في مركز يقولون عنه انه «سنترال» وعاشا معا من سنة ١٩٢٦ حتى السنة التي تنتهي - أو التي شئت ان تنتهي فيها - هذه القصة ! ...

وكانت «الشقة» مكونة من صالة رحبة . وغرفة استقبال . وغرفتي نوم ، وغرفة للسائدة . الى غيرها من الملحقات التي توجد في منيلاتها من المساكن العادية . .

وزين الشريكان «الشقة» بالورق الجميل ، ووضعا فيها تليفونا ، واثاثا «بمونبليه» لا بأس بها . حتى اذا فتحت ابوابها وافتتحت رسميا أطلق عليها الاخوان والخلان اسم «الجارسونيرة» ...

لا أدري لم يصدم هذا اللفظ النفوس وهو تعبير صحيح بلفظه ومعناه ينطبق تمام الانطباق على مساكن الاعزاب ؟ !

ولا أدري لم كانت تكال التهم جزافا الى هذه «الجارسونيرة» ويعلم الله انها مظلومة ؟ ! يعلم الله انها كانت جامعة اخلاقية سالت فيها دموع . وتهذبت فيها اخلاق . وصلحت نفوس . واستقامت شخصيات . وتطهرت سير . وتجلت علوم وفنون . وفاضت عظات وعبر ... ثم يعلم الله انها كانت دار مواساة وسلوى واصلاح للمظلومين والمظلومات من الظالمين ... ثم يعلم الله ان هذه «الجارسونيرة» كافحت في سبيل الحق حكومات وسلطات وحيثيات حتى انتصرت اخيرا بفلسفتها ونبلها وحماسها للحق على المال والجاه والسؤدد والنفوذ ... بغير مقابل ؟ ! !

بل يعلم الله ان «المقابل» كان جحودا كافرا . وانكارا فذا للجميل ! ...

نعم ...

كان يستقبل الصديقان القريبان الشريكان في هذه «الجارسونيرة» طوائف من أجمل وأزهى وأزهر زهرات الجنس اللطيف من كل لون ومن كل جنس ، ومن كل بيئة ، ويعلم الله ما كان تاريخ هذه «المؤسسة» تاريخ مجون او لذة ، أو سكرة أو هوى فاسد ، وانما كان تاريخ آلام ، وفواجع ، وأوجاع ، ودموع ، وشجون ! ...

كشفت حياة «الجارسونيرة» للصديقين القريبين الشريكين سر الحياة الاجتماعية في هذا القطر البائس ، وبالاخص في عاصمته

الخلابة الساحرة الفاجرة ، كشفت لهما القناع عن اسرار البيوت ، وأسرار السياسة . فهالهما ان بناء الاخلاق فى هذا البلد قائم على اساس متداع ضعيف ، وان النكبة نفسى وأمر مما يخال الخيال . وألم وأوجع مما تصور المبالغة ومما يصور الابتكار ! . . .

وها هى ذى « الجارسونيرة » ساعة كتابة هذه السطور ، قد هجرها الصديق القريب الشريك بعد ان أتم الله عليه نعمته بالزواج ، فقد تزوجت مسجدا صغيرا قام فيه منبر الاخلاق ، واحتشدت فيه « الذكريات » النقية ، وشملت الوحدة الاستاذ « شكرى » فاخذ يدون مذكراته ثم دفعها لصديقه مدون هذه القصة ليصوغها للقراء فى قالب العظة والدرس لعل فيها بعض العلاج ! . . .

١ — ريتا . . .

"RITA"

فى « برمنجهام » بانجلترا هبط الطالب المصرى « سعيد » ليلتحق بجامعة من جامعاتها ، لا يعنيكم ولا يعنينى ان تعلموا ان « سعيدا » هذا ولد فى قرية صغيرة ، وفى دار صغيرة من قرى ودور اقليم الغليوبية . أما ابوه « الشيخ مصيلحى » فكان رجلا لا من الوجهاء . ولا من انصاف الوجهاء وانما من « ارباع » الوجهاء . من الذين يملكون عشرين فدانا لا أكثر ولا أقل . . . ووالدة « سعيد » كانت — واظنها لا تزال — من الطراز القديم . الذى لم ير العاصمة فى حياته الا مرتين اثنتين ، لزيارة « السيدة زينب » ليس الا . . . وفاء « لنذر » . وانجازا لوعد وعهد ! . . .

نزل الفتى « سعيد » فى « بنسيون » لعائلة انجليزية مكونة من أب « حداد » وأم عجوز ، وفتاة تسمى « ريتا . . » . .

وكان الشاب فى ايامه الاولى وديعا ، مؤدبا ، خجولا ، مرتبكا ، ولكن بارك الله فى اخوانه ومواطنيه هناك : علموه ولقنوه الدروس ولمحان كلا منهم يصطحب فتاة فى محال الشاى ، ودور السينما ، ورحلات آخر الاسبوع . . شاغل الفتاة « ريتا » بظرف المصرى الجذاب فانقادت الى ظرفه ودعته . وابت كبرياؤه القومية فى مهجر العلم الا ان يتظاهر . وداء المصرى — كبر او صغر — هو التظاهر . والتظاهر أرفع مرتبة من المورد فاندفع وتلقى « الشيخ مصيلحى » الطلبات

بالبريد وبالتلغراف معسوبة بمصاذير المصروفات المدرسية ورحلات الاجازة . والمرض القاسي والكتب ، وأيدت دموع الام طلبات الابن الوحيد فرصد الاب المسكين ايراده كله ، على فلذة الكبد في « بلاد الغربة » ! !..

ثم استدان ....

ثم باع ...

والابن في فترات الاستدانة ، وفترات البيع الودي والجبري ، ينمادى في عواطفه وفي طلباته والشهور تمر والاعوام تمر والابن لا يرحم والاب يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ....

عرفتم « سعيدا » في مصر وفي مستغل راسه . وعرفتم في مصر من هو ابوه ومن هي امه ، وما هي داره ، وما هي ثروته المنتظرة . فهل عرفتم في « برمنجهام » من هو ؟ ! ..

تقول « ريتا » لامها العجوز : ان اباه من كبار « الباشوات » حكام المقاطعات . وملاك المزارع . . ان عندهم ثلاثة اسطبلات لخيل السباق . ان الجياد « سرحان » و « تت بت » و « سلطان » تربح الالف الجنيهات في كل موسم .. ان عندهم غابة عظيمة للصيد والقنص .. ان في قصرهم الريفي تكعيبة عنب تمتد الى مسافة ميلين مترين داخل الاسوار ... اه يا امي : انني لسعيدة ، وقد احببت مصر الغنية بلد المدخنات والثروات ! ...

وتقول العجوز باسمة : صدقت يا « ريتا » أبناء الارستقراطية هم الذين يحضرون لانجلترا للعلم . حظ سعيد يا ولدي !

ويحضر الاب « الحداد » في المساء « فتدردش » له العجوز وتروي الاعاجيب . فيبتسم الاب الطيب ويقبل امراته في سكون الليل فرحا بسعادة الابنة المحبوبة ..

***

وتمر اعوام الدراسة العادية و « سعيد » لا يزال يدرس .. والاب لا يزال يرهن ويبيع ..

والام لا تزال تبكي ..

وفي ليلة سوداء يرد خطاب من انجلترا . فيفضه الاب بلهفة فيجد فيه الصاعقة : صورة فوتوغرافية لسعيد ، ولزوجته « ريتا » ولابنهما الصغير « كمال » ! ! !

***

ويمر عام . ثم عام ..

ويحصل « سعيد » على شهادته العليا من جامعته الانجليزية ...

ويعود مع زوجته وابنه ..

ماضي ذي الباخرة تصل الى بورسعيد ..

الى الوطن المصري ..

وتركب « ريتا » القطار في يرنيه ..

والخيال لايزال يرتفع بها الى السماء ..

ولكن القطار قذر . والحر شديد — والغبار يكتم الانفاس .. أين الجبال ، والهضاب ، والحضرة الفرعونية ، والمناظر الطبيعية ؟؟ لاشيء ...

وهذه الجلاليب . وهذه الزعابيط ، وهذه الازياء المتنافرة ، انها اشياء تتنافر والذوق السليم ...

ويصل القطار الى القاهرة حوالي الرابعة والنصف مساء ..

وتذهب الاسرة « المختلطة » الى فندق ...

وتمضي فيه أياما ...

ان حر القاهرة لايطاق . وقد بدأت الانسكليزية الصغيرة تتضايق ...

اين الباشا الوالد . واين « الليدي » الوالدة . انهما لم يحضرا ولم يذهب اليهما الابن العزيز . انها جد توافة الى « الريف » البديع الخلاب !؟

وانباها « سعيد » في صباح احد الايام بالسفر لزيارة الوالد . وركبا القطار ومعهما الطفل العزيز . ووقف القطار على محطة صغيرة . ان « الرولز رويس » لم يكن في الانتظار ؟! وكذلك الخدم والحشم بملابس القصبية ؟! كان في الانتظار « حماران » عاديان . وركب « سعيد » أحدهما وأمامه ابنه . وركبت « ريتا » الثاني بصعوبة وخوف . اما الوالد فقيل انه مريض في الفراش . وبجوار الحمارين وقف بعض أقارب « سعيد » بملابسهم القروية المزهرة . كانوا بعض « نبلاء » الاسرة الكريمة ؟! وسار الحماران الهزيلان بالاسرة المصرية — البرمنجهامية سيرا بطيئا متعثرا حتى وصلا بالركب الميمون الى القرية . فاستقبلتهم التلال ،

والمستنقعات ، وطائفة من الديكة والفراخ ، والاوز والجديان والكلاب ...

وأمام دار أكل عليها الدهر وشرب، ولعب بها البلى والزمن . وقف الركب ! ...

هذا هو القصر المنيف ! ...

أين تكعيبة العنب التي طولها كيلو متران ؟!

أين اسطبلات الخيول ؟! ...

أين ابن غابة الصيد والقنص؟!

أين يا « سعيد » ما أنبأت به « رينا » وما أنبأت بها أمها العجوز وأباها « الحداد » ؟! ...

خيال ...

وأكاذيب ...

* * *

وحاول الوالد المريض ان يرحب بقلبه ولسانه . الم يكن بطبعه مصريا وديعا مضيافا ؟ والم يكن بطبعه أبا حنونا رغم كل الظروف ؟!

والام : وارحمتاه لها ...

وانتهت الزيارة و « رينا » ببرودها الانكليزي . وجمودها البريطاني ، تحاول ان تخفي وجيعتها

ولكن هيهات ...

وعادت الاسرة الى مصر . فسكنت شقة متواضعة . ومد الوالد ابنه بكل ما استطاع . فكانت المعيشة أضيق وأحقر من معيشة «الحداد» الانجليزي وزوجه العجوز ومضت أيام بؤس وشقاء . وعاودت «رينا» كبرياؤها الانجليزية فلم تطق الصبر . فلجأت الى الوكالة البريطانية وأنت واشتكت . وتحت عوامل التأثر والتوسل ألحق «سعيد» بوظيفة في « بني سويف» فانتقل مع زوجته وابنه ومرت شهور فولدت زوجته بنتا اسماها «فردوس»

* * *

من « برمنجهام » الى « بني سويف » ...

ان «رينا» حانقة . ولكنها أم !

وماذا يتلقى الطفلان المصريان من الام الانجليزية ومن خلق الام الانجليزية ؟!

كره مصر ! وكره الاب المصرى او كره كل ما هو مصرى ·· وبدأ «الزواج المختلط» يثمر ثمره المر ، وينتج محصولا من الصبر والمنغل

* * *

وفى «بنى سويف» فتاة مصرية ناظرة لاحدى مدارس البنات ·· أخذت تشاغل سعيدا وبشاغلها سعيد !

والدم المصرى يحن للدم المصرى

واستفحلت العلاقة فاصبحت غراما ···

ثم تمخضت فولدت «زواجا» ·

وكشفت الزوجة الانجليزية «الجريمة» فى نظرها فسافرت الى القاهرة وسعت سعيها الخطير · وانتهى الامر بالطلاق ! ··

وحيل بين الام وولديها فهددت بالفاضحة · وهددت بالنفوذ المقيم فى قصر الدوبارة · وهددت بالمسدس ! ···

***

ووظفت «ريتا» سكرتيرة فى مكتب أحد المحامين الانجليز · ونزلت فى «كنوت هاوس» فتعرف اليها الاستاذ «شكرى» وتعرفت اليه ···

غير أنها لم تطق البقاء فى مصر وحنت الى وطنها العزيز · ووسطت «الاستاذ شكرى» فى نهو المشكلة القائمة بينها وبين زوجها بشأن ولديها · فهداه الامر وافهمها بروح المصرى أن الولدين مصريان مسلمان · فمن المستحيل أن تمكن منهما فى غير جو مصر · وغير الاسلام ! ···

وفى « البارسونيرة » عقدت جلسات اثار الزواج المختلط ونكبات الزواج المختلط · فلم تسفر عن نجاح !

ولكن «ريتا» انجليزية ووراءها فضلاق قصر النيل ، والفلعة · وفى بحسارها طرادات وبوارج ومدمرات · وجن جنونها اذ بلغها أن الطفلين يعانيان من عنت الست الناظرة · ومن الاهمال فى التربية فحسمت الامر · واستأجرت سيارة من القاهرة وأسرعت بها الى « بنى سويف » واختطفت الطفلين من على باب المدرسة !

وعلم الوالد بالاختطاف فطاردها فى الاياب بسيارة حتى التقى الخصمان فى غرفة مأمور قسم عابدين !

* * *

ودق جرس التليفون فى الجارسونيرة واستدعى « الاستاذ شكرى » فبادر الى غرفة المأمور ...

وسمع الحكاية ...

وطلب اليه «سعيد» ان يكتب بالطريقة القانونية تنازلا من حضانة الطفلين المصريين المسلمين للام الانكليزية . مقابل عدم مطالبتها له بأجر الحضانة ولاباية مصاريف او تكاليف ؟ !

فأسر اليه على انفراد ان الام مزمعة السفر الى انكلترا ؟ !

قال الاب العظيم : ليكن !

قال الاستاذ : والولدان ...

قال : ليذهبا حيث يشاء القدر!

قذفه الاستاذ بنظرة ازدراء رهيبة . ثم قبض على يديه بيدين مرتعشتين وصاح فى وجهه : انك لنذل !!!

« اننى كمحام من واجبى ان احرر ماتريد . ولكنى كمصرى وكمواطن . العنك واحتقرك...

قال سعيد : انها امرأة شريرة، وهى تهددنى بالقتل . ولا يبعد ان تفعل ، بل انى لمتأكد ، فاكتب لقد صممت ! ...

وقالت « ريتا » هيا . هيا . اننى سأسافر الى انكلترا بعد باكر واريد ان أعد حوائجى وليس عندى وقت ...

قال الاستاذ : لن افعل ... انتى بذلك أقضى على قومية الطفلين . وعلى دين الطفلين . وارتكب جرما قوميا خطيرا . احذر ياسعيد وفكر وراجع نفسك ! ...

يجرى كل هذا فى غرفة المأمور . والطفلان يحدقان بعيونهما المصرية الحلوة وبسذاجة الابرياء ولا يفهمان شيئا ...

وتحرج الموقف وتعقد . ولكن « سعيد » لم يجد فى الامر حاجة لمحام . فكتب ورقة واشترط فيها شروطه الخاصة بالمصاريف ووقعت « ريتا » فى الحال ...

ثم نادت : كمال ! فردوس !..

فرد الطفلان : ماما ! ...

قالت : قبلا « بابا » ...

فقبلاه . ودموع « الاستاذ شكرى » تسيل أسى وغيظا ..

واحتضنت « ريتا » الطفلين وحيت الموجودين واقتادتهما الى السيارة التى انطلقت بسرعة البرق الى المستقبل المجهول فى انكلترا ...

وانسحب « سعيد » و «المحامى » المفجوع بذل العار والشنار بعد أن خسر المعركة . وخسرا المصريين المسلمين الصغيرين : الى ماشاء الله ! ...

. . . . . .
. . . . . .

٢ ـ سعدان . . .

كانت فى السابعة عشرة من عمرها لما زوجوها لرجل كبير من رجال البوليس . يبلغ من العمر الخامسة والاربعين .. .

وكانت تحب ابن عمها . وابن عمها يحبها . ولكن أسرة الفتاة واسرة الفتى كانتا متحدتين فى الحيلولة ضد الزواج .. .

وعاشت الصغيرة مع رجل البوليس الكبير عيشة تعسة . وعجيب هذا النوع من الزواج . وعجيب هذا الاتحاد الاكراهى بين السن الصغيرة والسن الكبيرة . واعجب منه عند ماتصل الزوجة لسن السابعة والعشرين وعند مايصل الزوج لسن اليأس أسوة بالنساء ...

كانت الزوجة الصغيرة لاتزال تحن حنين القلب وحنين الدم لابن العم حبيب القلب وحبيب الدم . وكان فتى وسيما جميلا يناسبها فى السن وفى الجمال...

ومرت سنة ثم سنة . والفتاة لاتنسى عهدها والفتى لاينسى عهده . واخيرا لم تطق هى ولم يطق هو ، فدبرا معا . وتآمرا معا . وانتهى الامر بطلاق الزوجة الصغيرة من الزوج غير الصغير..

* * *

وتزوج الفتى من الفتاة ...

واستقر الزوجان الصغيران المحبان الجميلان فى مدينة هى عاصمة اقليم من اقاليم الدرجة الاولى ...

وكان بيت الزوجة الصغيرة ارشق بيت فى المدينة . وانظف بيت فى المدينة . فان الفتاة نسلت من اصل تركى . وكانت ربة منزل تملؤه بهجة ، ونورا وعاجا...

* * *

ولفتت سيدات المدينة بجمال الفتاة . فكانت ريحانة المجالس . ووردة ايام الاستقبال ...

ومدير الاقليم كان رجلا كبيرا ، ولكن قلبه كان لايزال كقلوب الصغار ...

وترددت الفتاة على والدته العجوز بأمر زوجها الضابط المرءوس قياما بواجب المجاملة . وقياما بواجب الملق والدهان ..

والتقى المدير بالفتاة . فراعه أنها جميلة جمالا يلفت النظر ويستحق الانتباه ...

ولاحظت الفتاة فى يوم من الايام عطفا خاصا من سعادة المدير فأجفلت وجزعت ...

وبادرت الطيبة الساذجة الى زوجها الشاب تفضى اليه بالملاحظة الخطيرة فابتسم وقال : العبى دورك ؟؟

قالت بهلع : ماذا ؟!

قال : سايريه وجمليه ولكن حذار ...

قالت : يارجل !

قال : ألا تثقين من نفسك ؟

قالت : كل الثقة ...

قال : علام الخوف اذن ؟ ... تستطيع أن تستفيد ...

((تستفيد))

لفظ ومعنى عثرت بهما كثيرا فى قواميس الزواج !..

لا اريد ان احمل الطبيعة البشرية حملا ثقيلا ينفر منه الاحساس وتمجه الاخلاق . ويأباه الدم . فاتهم بعض الازواج الرجال بأنهم يستغلون الزوجات لاقصى حدود الاستغلال . ولكنى اقرر معتدلا أنهم يسبون بالنار عن جهل ، وعن فرط ثقة ، وعن طيبة ، وعن قلة اختبار ، وعن ضعف مادى ، فيتسامحون . ويتغاضون . ويمهدون . ويفتحون الطريق . ويطلقون أول خرطوشة . ولايقدرون النتائج بعد ذلك لانها كانت فى نظرهم بعيدة عن الخاطر البليد الغبى غير اللماح

***

انتاب الفتاة الذهول من هذا التصريح الخطير . ومن هذا

« الاذن » المخنث فرشقت الزوج بنظرة ازدراء ولاول مرة تلهلت ذاكرة الزوج العجوز الرجل ! ..

ومهما قيل عن غريزة المرأة . ومهما قيل عن عناصر اغرائها واستمالتها فانى اظن انه لا المال، ولا الجمال ، ولا خفة الظل ، بمرتفعة من ناحية التقدير الى درجة « الرجولة » !..

الرجولة هى ميزة الرجل . وهى المشتقة منه لفظا ، ولغة ، ومعنى . ولئن خدشت هذه « الرجولة » فى الزوج مرة فقل على الهناء العائلى السلام !..

***

ان الضابط الصغير كان طموحا تواقا الى الرقى . وكم دفعت شهوة الرقى الى اعماق اخلاقه سحيقة . دع هذه الوسيلة الوضيعة من وسائل تحقيق المآرب والمطامع . وانظر فى الازمات السياسية المصرية كم لعبت « شهوة الترقى » دورها اللعين العفن القذر فكانت الاخلاق هى المنكوبة . وكانت الاخلاق هى المدحورة المقهورة . وكانت الاخلاق هى الضحية وهى الفريسة ..

وسرت العدوى سريان النار فى الهشيم . فانتقلت الى العمد وشيوخ البلد ووجهاء القرى والى العمال وغير العمال فاضطبغوا بكل لون . وقبلوا كل يد . وآزروا كل حكم . ونافقوا لكل ذى سلطان ...

وشهوة الترقى ، وخشية الضرر ، ورغبة الانتقام ، كلها نزوات تستوى وتتسابق وهى وثيقة الاتصال بعضها بالبعض الاخر ، وهى اليوم المظهر النشيط العامل فى حياتنا السياسية والاجتماعية

***

الفتاة لم تجرب الزلة بعد ..

هى الثائرة على الزوج وعلى سعادة المدير ...

ولكن المرأة الضعيفة فى كفاحها القوى تحتاج الى سند يسندها ، وعضد يعضدها ، وعامل بقويها ويشد ازرها ...

أين هو ؟ ؟

أهو الزوج الذى يريد ان « يستفيد » ؟..

أم سعادة المدير المحب الولهان ؟...

وتشجع سعادته فعطف على المرأة وعلى الرجل :

أما تلك فقد أغرقها بالهدايا الذهبية ، والماسيه ، والحريرية ... وبالحلوى !

وأما هذا فقد أضاف الى نجمته، نجمة ...

وتوثقت العلاقة . وتعددت الزيارات . والفتاة تتدرج من العبوس الى الابتسام . ومن النفور الى الاستسلام . ومن القلق الى التسليم بارادة الزوج وارادة القدر ...

ولكنها لم تسقط بعد في عرف الحقيقة وفي عرف الحق وفي عرف علام الغيوب ...

هي لاتزال عفة الثوب ، نقية الازار ..

ولكنها سقطت وانتهت في عرف الناس !

والناس في عواصم الاقاليم لاحون ، فضوليون ، يدركون بسرعة البرق حتى لاكاد أتخيل انهم يدركون بطريق الالهام ..

وانطلقت اشاعة في البلد بأن سعادة المدير و « سعاد » قد أصبحا عشيقين جسما وروحا ، ودما ...

والفتاة مظلومة ...

وعواصم الاقاليم بلاد محدودة الدائرة ، ضيقة المساحة ، محصورة الوسط ، والاشاعة قد دوت دويها ، وأنذر بها الطبل والمزمار ...

وحمل البريد الى الضابط ذي النجمتين خطابات بدون توقيع فهم منها أنه أصبح محط الانظار المزدرية ، وهدف الالسنة الشريرة فجن جنونه ، وتحركت — بعد طول الرقاد — رجولته ! .

وفي يوم من الايام دعا سعادة الحكمدار سعادة المدير الى الغداء .. ومثل هذه الولائم تجمع على موائدها كبار الموظفين وكبار الاعيان . وكان الحكمدار يسكن شقة في الدور الثاني من عمارة . والضابط يسكن الشقة التي فوقها . وتناول المدير الغداء وشرب القهوة . ثم نهض للانصراف ...

ويشاء سوء الحظ أنه في لحظة نزوله على السلم هو والجيش الجرار الذي يتبعه ... ووراءهم الضابط . كانت «سعاد» تلقي بعض الزهور الذابلة المختلفة الانواع والالوان على السلم . فسقطت على رأس المدير . ونطلع الجميع الى فوق فوجدوا الفاتنة تلقي الزهور وتنثرها على سعادة المدير ؟! ..

أليس كذلك ؟

هو كذلك واحسرتاه . وتنتشر الحكاية بسرعة البرق في البلدة فكانت هي تسلية المجالس وحديث السهرات .

وانتقلت الى النساء فطرزتهـا بالمبالغات وبالاضاعفات والفتـاة البريئة مظلومة ! ...

وكـاد الفتى يصعق من هول الموقف . حتى اذا ودع سعادة المدير الى المكان المناسب عاد ادراجه وقـد ثارت « رجولته » فصفع الزوجه البريئـة صـفعة قاسية ثم أردفها بيمين «الطلاق»!

جمعت البريئـة المظلومة العفيفـة حاجاتهـا مطرودة شر طردة من عاصـمة الاقليم ..مثلومة الشرف ، ساقطة فى نظر الناس جميعا لافى نظر الله ..

عادت الى القاهرة فارتمت فى أحضان أمها العجوز الفانية تبكى وتلطم وليس لها فى دنيـاها الاالام والا ايراد ثلاثة جنيهات فى الشهر الواحد استحقاقها فى وقف يصرف شهرا ويتأخر شهورا .

***

قاومت الفتـاة أمواج الخضـم الدنيوى المتـلاطم الامواج وكادت تظفر بخطيب . غير أنه ما لبث أن اتصل بتاريخها الكـاذب مع سعادة المدير حتى أفلت وفر هاربا وظفرت بثان وثالث فكانت العاقبة واحدة

وامتنع صرف الاستحقاق لها بسبب نزاع جـد فى الوقف فأغلقت أبواب الحياة فى وجهها ثم جرفها التيار زهرة ندية يانعة الى حيث غيب مثيلاتها فى قاعه حتى أصبحت فى سنة ١٩٢٦ من زائرات الجارسونييرات !

٣ — لولو

«لولو» فى سن الخامسة عشرة جمالها جمال صبـحى منتعش . هل تفهمون ماذا أعنى بالجمال الصبحى المنتعش ؟

هـو الجمـال المدملج الرياضى المتناسب الاجزاء والتقـاطيع . الجمال الذى يثور على حياة المخادع والبيوت والذى يقفز الى شاطىء النهر ، وأشجار الحدائق . والهواء الطلق ، والخلاء ، والذى يمشى على القدم كيلو مترات والذى يجرى . وينط ويحرك العضلات . ويملأ الصـدر هواء . ويتمتع بنعمة « الشمس » عـدوة الامراض والميكروبات ...

كانت تسكن مع أسرتها فى «النيل» بجوار الجزيرة . والجزيرة فيها ارستقراطيـة . وجمال . وسيارات . وأمانى وأحلام ..

وهي قد اعتادت أن تتريض في عصر كل يوم • اما على الفدد أو فوق «البسكليت» •• وشاءت الصدف أن تلتقي كل يوم بسيارة فخمة فاخرة يقودها شاب فخم فاخر •••

وأدت هذه الزمالة في اللقاء وفي النزهة الى النظر • فالى الابتسام • فالى الكلام •••

ولكنه كان نظرا عاديا • وابتساما بريئا • وكلاما تابعا — فقط — للسان •••

***

في الجزيرة أو فيما يلي الجزيرة سيدة كان يجب أن يجللها جلال السن ووقار الارستقراطية وفناعة الحياة المسالمة باليسر والعمار • ولكنها نشأت — أصلا — في بيت من البيوت الخاملة ثم شاء لها الحظ الطيب أن تصبح زوجة لاحد السراة الوجهاء • وأن تتربع على عرش قصر عظيم وعلى قلب زوج مستسلم • السلطة في يمينها والمال في يسارها والاهواء تسمم دمها وميولها •••

اذن ليصبح القصر ندوة لا للعلماء والاقطاب والساسة والادباء • وانما للمتعة والهوى واللذة والتسلية • وداء السيدة العضال لا يشفيه الا أن تجمع الدار الفاخرة من حين لحين بين العشاق وجنود العواطف في سهرات •• وحذار حذار أن تسيء الظن بوسط الآكلين والشاربين والراقصين والضاحكين والمتهامسين من رجال ونساء ! فكلهم من طبقات المتحررين من الدرجتين الاولى والثانية ••• فهناك الوزراء والكبراء وكبار الموظفين والشبان الوارثون ••• وهناك «المقابل» من السيدات الكريمات الموسرات ••• ثم هناك « كمالة الطقم » من مطربين ومطربات وموسيقيين وموسيقيات •••

* * *

الشاب الفخم الفاخر ذو السيارة الفخمة الفاخرة وزميل الصغيرة ذات الجمال الصحي المنتعش في اللقاء وفي النزهة من رواد هذا المعهد الجليل •••

هس في أذن السيدة الوقور الغاوية الهاوية أن تدعو الفتاة وأهل الفتاة الى سهرة • وان تدعوه وأسرته الى نفس السهرة • ليتم التعارف وليبدأ العمل ! •••

وكانت السيدة الوقور عند ظن صديقها الشاب بمهارتها وبراعتها وكفاءتها فكانت السهرة وكان التعارف ! ...

* * *

وبدأت الصغيرة تميل . وبدأت تحن الى حياة الارستوقراطية . وحياة البذخ . وحياة اللهو والرفيع الشأن ...

ولكن بالخيبة الامل ! ان الفتاة قد جاءها خطيب . ولكن ليس من ذلك النوع الراقى . ولا تلك «الماركة» الـ «Luxe» ...

وأسرة الفتاة متوسطة الحال . والفتى كذلك متوسط الحال . الفتى الخطيب لا الفتى الخلاب . وتقبل الاسرة الخطبة وتسير اجراءاتها بسرعة البرق . وتحاول الفتاة ان تتمنع وأن تثور على الزواج ولكن ماذا تستطيع أن تفعل . وكيف تملك أن تقاوم والشاب الفخم الفاخر متزوج ! ولم يعرض عليها الزواج ؟ !

اذن لتخضع لحكم الواقع وحكم العقل . ولتتمرن على أن لا تفكر الا فى خطيبها والا فى سعادتها الزوجية المقبلة . ويساعد الفتاة على النسيان ان الشاب الفخم الفاخر قد اختفى من الميدان وسافر الى «أوربا» مع زوجته لتمضية فصل الصيف . وهكذا تتوارى الآمال والاحلام ...

* * *

ويتم الزواج وتمر على عهده اربعة شهور سعيدة . هادئة . فيها حب وافر من الزوج المتواضع ، وحب «ميولوجى» من الزوجة الطماحة ...

ثم يعود الشاب ذو السيارة الفخمة الفاخرة من رحلته ، ويعود موسم العمل فى قصر السيدة الوقورة ...

* * *

ويستدرج الزوج المتواضع وزوجته الصغيرة الى القصر العظيم والى السهرات المتلألئة . والى الوسط الخلاب . فينتهز الشاب الثرى الفرصة . ويختلس اللحظات ويغازل الفتاة فى غفلة من زوجها ... وفى غفلة من زوجته ؟ !

وتمتزج الاسرتان وتتصادقان ...

وتتكرر دعوة الشاب الثرى «للولو» فى السينما . والمسارح مع

أسرته فتذهب وحدها . حتى اذا انتهت الرواية وسلت السيارة الى منزله لتوصيل عائلته . وعادت تحمل الشاب الثرى والزوجة الصغيرة الى منزلها ...

وفى الطريق تتجلى عواطف . وتصدر زفرات وتأوهات . وتسيل دموع . والفتاة مبهورة بمظاهر اليسر . ماخوذة ببسطرتها على قلب الشاب الارستقراطى النبيل الجميل الموسر . فتندفع ويتمكن الحب من قلبها

أيها الازواج المتواضعون :

* * *

أخطر عنصر على سعادتكم الزوجية المتواضعة ان توجدوا زوجاتكم فى جو الامانى والآلام والاحلام . وفى الوسط الراقى الباهر الساحر الخاطف للابصار . حتى اذا عدتم الى بيوتكم الرقيقة الحال . والى « شقتكم » الضيقة المجال . اخذت الزوجات المحرومات المتطلعات المتمنيات تتحسر وتتمنى وتريد ؟ ! ...

مظاهر العز فتنه . واجواء اليسر مزلقة . فاحصروا زوجاتكم فى جوكم . واحبسوهن فى وسطكم . وحذار حذار ان ترقوا بهن للسماء لحظات . ثم تهبطوا بهن الارض سنوات ؟ !! ...

* * *

وهكذا سمعت الفتنة بلب الفتاة . فتغيرت على زوجها وتنكرت لجوها ووسطها . واوعز اليها الشيطان الارستقراطى ان تبذل بكل وسائلها للطلاق من زوجها . واعدا اياها وعد النبيل الحر . والكريم الاصيل . ان يتزوج منها فى الحال ...

لم تكن العصمة فى يدها . ولم يكن حق الطلاق حقها . لئن كان هذا صحيحا فى عرف الشرع وفى عرف الغرف فانه لم يكن كذلك فى عرف « العمل » ...

المراة التى تريد الطلاق . ولا تملك الطلاق . تستطيع الطلاق !.

« لولو » الصغيرة الساذجة خلق منها الحب شخصية اخرى فهى قد اصبحت فى البيت الشر والثورة ، والكدر ، والنعاسة . . !

ولمح الزوج المتواضع المسكين هذا التطور فعالجه بالرقة تارة . وبالنصح تارة أخرى . . وبالتهديد حينا وبالوعيد أحيانا ... حتى اذا ماكشف السر وكانت لديه مقدماته يئس من الاصلاح ففوض أمره للقدر ...

ان الرولزرويس لم يكن في الانتظا .. بل ان في الانتظار حمار عادى

وكان المسكين يحبها حب العبادة . ولكن كانت له بقية من كرامة وعزة نفس . وصارحته وصارحها بالطلاق فأصبح أمره محتوما .

* * *

وفى يوم من الايام حضر الماذون الذى حرر عقد الزواج ليحرر صيغة الطلاق . فى جمع من أهل الزوج وأهل الزوجة . بذلت النصائح والفتى يتوجع . والفتاة تصمم ...

. ولم يملك الفتى المسكين الا ان يبكى . والماذون يدون ويسطر حتى اذا تمت الاجراءات سلمها ورقة الطلاق وهمس بهذه الكلمات :

« عندما تحتاجين الى . وأعتقد انك ستحتاجين ؛ تجدينني فى خدمتك »

* * *

فى الزيتون « فيلا » صغيرة جميلة مضت فيها « لولو » شهور العسل فى الحرام لا فى الحلال ..

باعت جسمها وروحها لعشيقها .. وخطيبها .. بيع السماح ..
أما المقابل فكان مجرد الوعد ..
وبعض المصروف الضرورى للحياة ...

وكانت له مخلصة الاخلاص كله . وكيف لا ! الم تكن تمهد للزواج ؟ ...

أما مظاهر الاخلاص العجيب فأهمها وأخطرها أنها قطعت صلتها بالعالم . لا بالصديقات فقط . بل بأمها واخواتها وأفراد أسرتها . وكانت الكبرياء تحول بين هؤلاء وبين الاتصال بها فى بداية الامر ولكن يا للقلوب الرحيمة الحنونة ! ...

مهما سقطت الفتاة فان سقوطها لا يحول بينها وبين قلوب الام والشقيقات ...

وبذلت الشقيقات محاولات جريئة للاتصال بها فرفضت رفضا باتا : ان خطيبها أراد !!!

وسمعت الام الرؤوم ان ابنتها مريضة فزحفت وزحفت حتى وقفت امام الباب وطرقت ...

فتح الباب وعرفت الفاتح بشخصيتها فعاد يستذر اليها : البيك لا يريد !!!

وعادت الأم مدحورة مهزومة تبكي جحود البنات ...

***

وطال الأمر على الزواج ومشروع الزواج . وفي اثناء المطل والتسويف سقطت الفتاة مريضة بسبب أعف عن ذكره . أما المجرم المتسبب فكان الشاب الارستقراطي . ونقلت الفتاة المستشفى فمضت فيه شهورا ... وولدت فتاة !!!

في الشهر الثاني من شهور المرض زارها المغرم الولهان، والخطيب النبيل . وقد ارتسمت على وجهه علامات الالم والكدر :

قالت له : مابك يا « حسين » ؟...

قال : مصيبة ...

قالت جزعة : ماذا ؟!

قال : زوجتي مريضة بالكلى، وقد نصح لها الاطباء بالسفر في الحال الى فرنسا للاستشفاء تمهيدا لاجراء عملية عند الدكتور « ماريون » الطبيب العالمي الشهير ...

قالت النبيلة الفقيرة : من واجبك اذن ان تسافر !

قال : نعم ...

قالت : الامر هين . سأصبر على فراقك . وصحتي تتحسن فان كنت تحسب حسابي فاني اقدر حرج مركزك . فلا تتردد!

قال : شكرا ...

وتنهدت الفتاة

قال : لم تتنهدين . اني لا زال على وعدي . وبمجرد عودتي سنعقد العقد !

قالت : اني لا اسيء الظن بشرفك . متى تسافر ؟

قال : في اقرب فرصة . لقد أعددنا كل شيء، وربما رحلنا باكرا، فاذا حالت الظروف بيني وبين زيارتك مرة أخرى فاني أودعك الآن

ارتاعت الفتاة . ولكنها كظمت الغيظ وكتمت الالم وتظاهرت بالثبات

وتبرع النبيل الاصيل بقبلة ... ثم نهض مستأذنا ...

ولكنه ظل واقفا مرتبكا ..

قالت : صارحني . انت تخفي شيئا ؟ ...

قال : نعم ..

وانتظرت الفتاة التفسير ...

ومرت دقيقة ...
قالت . تكلم ..
قال : انى خجل ...
قالت : وهل بيننا تكليف ؟
قال : لولو ! .. هل عندك نقود ؟ انى مازوم وعبثا حاولت الحصول على مال ...
انتصبت الفتاة الشريفة رغم مرضها وهزالها وقالت :
— نعم . عندى يا حسين . عندى اربعمائة جنيه فى البنك . مبلغ وفرته منك . فهو مالك . فى الشنطة دفتر الشيكات فهاته ..
واثنى النبيل الاصيل عليها قبلها ثم احضر لها الدفتر ووقعت بالصرف لحامله ...
قال وهو يطويه : ثقى يا لولوانى لن انسى معروفك ابدا . وسأعرف كيف ارد قرضك وكيف أؤدى واجبى نحوك يا انبل مخلوق ...
قالت وهى تقبله : اطلب لزوجتك الشقاء واذهب لك بالسلامة ...
وانتهت اجراءات الوداع على ارق واحسن ما يكون . وغاب النبيل الاصيل عن النظر ..

***

ان « الفيلا » لم تعش طويلا بعد خروج الفتاة من المستشفى ..
السبب واضح : ان النبيل الاصيل الذى غاب عن النظر . ظل غائبا عن النظر بشخصه وبرسائله وبصوره . وان الاربعمائة من الجنيهات كذلك غابت عن النظر وكانت كل ما تملك ...
وسكنت الفتاة فى الحال شقة صغيرة وهى تصبر صبر الكرام معللة النفس بعودة النبيل الاصيل وبتحقيق الوعد النبيل الاصيل !.
وكانت تعرف عنوانه فى « كوك » فاخطرته بحالتها وبعنوانها :
وفى يوم من الايام دق جرس الباب . ففتحته بنفسها واذا بها امام ساعى التلغراف ..
كادت تقفز من الفرح وخصوصا عندما علمت انه من الخارج ..
وفضت التلغراف بنشوة السكران من البشرى وقلبها يكاد يقفز من مخدعه واذا بها تقرأ :

« ابلغك اسفا انك حرة ، انى تحت ضغط الظروف القاهرة اقطع علاقتى . اكرر اسفى » .

« صديقك »

صعقت الفتاة وأغمى عليها بعد صرخة تذيب الحجر . لم يكن هناك الا « ساعى التلغراف » الذى ظل واقفا ينتظر البقشيش . وكان شابا فيه مروءة فأجرى الاسعافات اللازمة حتى استعادت قواها ...

***

وبذلت الفتاة جهود الجبابرة لتثبت حق البنت المجحودة وليدة العلاقة غير الشرعية . فذهبت مساعيها هباء ..

وتعرفت الى الاستاذ «شكرى» فكانت من الضحايا التى قذف بها خضم الحياة المضطرب الى « الجارسونييرة » . ولمح فيها سرا . ولمحت فيه شمما . فعف وعفت . حتى كشف يوما من الايام فى زيارة لها ان على «الشيزلونج» صوتا بريئا ينبعث من تحت الغطاء :

قال : ما هذا ؟

قالت : دموعى وآلامى وتعاستى ...

قال : افصحى !

قالت : بنتى ...

قال : وبنت من ؟

قالت : بنت الشارع . بنت الزقاق . بنت القدر ! ...

***

ايها الشباب النبيل : الاصيل : اذا سألتمونى ماذا تشتغل « لولو » اليوم ؟ اجبتكم :

ـ ابحثوا عنها فى شارع عماد الدين ... انها تشتغل « راقصة » ؟ !

. . . . . .

٤ ـ الشقيقتان

عودوا بنا قليلا الى سنة ١٩١٢

ان الذاهب الى « مصر القديمة » يرى فى المدخل قبل مستشفى « هرمل » منزلا كبيرا فى الفضاء أو فى المزارع لاأذكر جيدا ... ثم لا أريد أن أعين جيدا ... ودعونى أغالط فى الجغرافية مادمنا نسجل الحقائق!

فى ذلك المنزل كانت تقيم عيلة كبيرة

رب العيلة موظف كبير كان يتقاضى من الحكومة مرتبا كبيرا وكان مغرما بالزواج . وكان رجلا من « الدقة القديمة » خشنا فى مزاجه وفى طباعه . وابى خياله السمح الا ان يجمع زوجاته الثلاث فى ذلك المنزل الكبير

وكان له من الزوجة الاولى أولاد كبار . هم اليوم من كبار موظفى المصالح والدواوين

وله من الزوجة الثانية أولاد كبار . اغلبيتهم آنسات أوسيدات وابن واحد أظنه قد مات

وله من الزوجة الثالثة بنتان

الاولى كانت تبلغ السادسة عشرة واسمها « سميحة »

والثانية كانت تبلغ من العمر الحادية عشرة واسمها « احسان »

***

ويقطن بجوار المنزل طالب يبلغ من العمر ستة عشر عاما ـ هو ايضا ـ كان اذ ذاك بالمدرسة السعيدية

وتزاورت أسرة الطالب مع « أسرات » الموظف الكبير ذى الثلاث زوجات وامتزجت العيلتان

* * *

كانت الفتاة الكبرى فى المدرسة « السنية » وكانت معروفة بجمالها الفتان : اللون الاسمر الخمرى . والشعر الطويل موضة ذلك الوقت

وبهذه المناسبة أود فى مؤلفى هذا ان أسجل اننى من ألد أعداء الشعر غير الطويل ... انا من خصوم الشعر المقصوص على طريقة أولاد البلد وطلبة المدارس وغواة « القصة » الاميمية من ابناء

الفلاحين ... الشعر الطويل النامي جمال مستقل بذاته ؛ يوحي بالخشوع والاجلال ويلفت النظر وحده كنعمة قريبة من نعم الله ... له كبرياء وله عظمة وله مغناطيس ... ثم له دلال حين يختفي فيه الوجه الجميل ... ثم سحر حين يثائر باهمال مقصود فبعضه يتدلى على الصدر . وبعضه يجثم على الكتف . وبعضه ينسحب على الظهر ... ثم له روعة حين يلعب به النسيم . ثم يأكل القلب حين يغمر العاشق وجهه بين ثناياه وحين يمسح به دموع الحب والغرام ؟ !

من عهد ان قضى الجهل وسوء الحظ على هذه الثروة قلت في نفسي وداعا يا رمز الجمال . حين تجلى « القفا » وبرز ثقيل الظل ، ثقيل الدم ، ثقيل الوطأة على النظر اجرد امرد أخضر قلت وداعا يا جادبية !

اقول لكن الحق يابنات اليوم لقد انتحرتن شعرا ... وانمس منكن حظا السيدات كبيرات السن نوعا . كان الشعر الطويل النامي يوشي نوعا ما على انقاض جمالهن المتخلفة . فلما أجهزن عليه اجهزن — حتى — على الانقاض ؟ !

* * *

كان طالب مدرسة السعيدية حريصا على الوجود بمنزل اسرته حين تحضر سميحة . وكانت هذه حريصة على أن تذهب حين يكون الطالب موجودا

وكانت حجة «سميحة» في الزيارات المتكررة الصداقة التي توثقت عراها بينها وبين اخت الطالب وان كانت اصغر منها سنا بكثير . ثم كانت دائما ابدا يصحبها حارس : اختها احسان

وكم كانت «الاخت» ولا تزال اليوم هذا « الحجة » وكم كانت ولا تزال واسطة التعارف . وصاحبة الفضل في تكرار المقابلات ووضع الحجر الاساسي في العواطف ....

خذوا كلامي ببساطة ولا تغضبوا ايها الاخوة اشقاء كنتم أو غير اشقاء .

طالما استخدمتم الاخوات في انشاء العلاقات . وفي تنميتها وتغذيتها وفي نقل الرسائل وفي اصلاح ذات البين . وقد يكون هذا وذاك يتجه اتجاها صالحا ولكنه قد ينجه في بعض الاحيان اتجاها فاسدا . في سبيل الاهواء . أيها الاخوة

لا تعفون ولا تذكرون انكم تلقون اخطر الدروس على الاخرات وانكم ترسمون لهن خطط الحب والهوى . وانكم تكشفون لهن اسرار وسائل العشق . وانكم تحرضون تحريضا حماسيا على ان يفعلن مثلما تفعلون وعلى ان لا يرين فى الغرام شيئا يخدش السمعة ويؤذى الكرامة . . .

هذه ملاحظة عرضية لاتمت فى اصلها او فى نتائجها بنسب الى وقائع حكايتنا ، ولكنى لم استطع ان اغفلها وانا امر مرا على علاقة « الحب الابجدى » الذى نشأ بين الطالب - وبين « سميحة »

وكان لابد من مراسلات وخطابات . اما أخت الطالب فرفضت - على سذاجتها - بتاتا ان تكون ساعية البريد . واما اخت « سميحة » فقد التحقت بالخدمة . . .

واني اسائل نفسى منذهشا : لم يشغف العشاق من هذا السن ومن هذا الصنف شغفا عظيما بالمراسلات ؟!

فى درج كل طالبة وفى درج كل طالب رزم مكدسة من رسائل الحب باللغات الثلاث : العربيه . والانكليزية . والافرنسية . . . ثم بجانب هذه الخطابات صور فوتوغرافية فردية وزوجية تجمع بين العاشقين فى مختلف الاوضاع وقد قرأت كثيرا من هذه الرسائل الحنونة فوجدت فيها غلوا واطنابا وتسامحا وجنونا وتزقا . ووجدت اساليبها من نوع اساليب القصص فضلا عن انها امتازت بخيال لا يخلو من سخافات ومضحكات . . . فهذه فتاة تهدد بالانتحار - وهذا رفيق يهدد بالقتل - وهذه اخرى تهب نفسها هبة شرعية لصديقها - وهذا اخر يقترح الفرار - وهذه تصف حالتها النفسية وتعرض تفصيلا دقيقا لهواجس الارق - وهذا يرفق بخطابه منديلا مبللا بماء الدموع ؟!

ثم تنقطع العلاقة الغرامية بحكم الظروف او بحكم الضرورة او بحكم الفشل ، فتبقى خطابات الفتاة ومخلفاتها عند الفتى ، وتبقى خطابات الفتى وملحقاتها عند الفتاة ، ثم يلعب الزمن الطويل دوره وتمر الاعوام والاعوام وقد تكون الفتاة قد ارتفعت الى الجوزاء وقد يكون الفتى قد هبط الى الحضيض . وقد يكون العكس . ويظل السلاح القاسى الحاد فى يد كل طرف ومن يدرى كيف يستعمله ؟ .

والمحب بحسب اختباراتى العديدة فياض ثرثار . يحكى ويروى لكل صديق ولكل صديقة . وبرهانه الدليل الكتابى الذى فى يده . وكم عانت الاسر المصرية مصائب بسبب هذه المراسلات . .

هل تطمع هذه « القصة » فى ان تسدى الى المحبين الناشئين نصيحة : ان يحبوا ماشاء لهم الحب ، ولكن لا يكتبون !!!

***

ترعرع الحب بين الطالب وبين « سميحة » .. وكانت الشقيقة الصغرى هى ساعية البريد . وفى يوم من الايام حملت لاختها خطابا من نوع ماوصفت فضبطه الوالد الخشن وقضه وقرأه . وكانت ثورة : أما العقاب البدنى فتوقع على الفتاتين . وكانت الصغرى هى صاحبة النصيب الاوفر . وصدرت الاوامر بالقاطعة ، وبمنع الزيارة . وبالاكتفاء بما تعلمته الفتاة من المدرسة !!..

وعانت « احسان » الصغرى من الضرب الشديد ماعانت . وسجل عام ١٩١٢ وراء اذنها اليمنى جرحا مزمنا لعبت فيه ايدى الاطباء ومن ضمنهم « نصف طبيب » فى مدرسة الطب . طالب فى السنة الثانية قدمه « طالب السعيدية » وسبب المصيبة هدية ليقوم بالعلاج . واندمل الجرح البدنى بعد زمن طويل ولكنه خلف شيئا . . علامة مادية بقيت للذكريات ..

***

تزوجت « سميحة » بعد ذلك فانقطعت العلاقة بينها وبين طالب السعيدية . ثم فرق الزمن بين الاثنين وأسدل الستار على الذكريات ..

***

فى سنة ١٩٢٧ اى بعد مرور خمسة عشر عاما يدق جرس الباب فى « الجارسونيرة » دقا رقيقا . يفتح « المتر شكرى » البواب ويستقبل زائرتين . احداهما فى سن الخامسة والاربعين . لا تستحق الوصف لانها ليست بالجميلة والثانية فى سن السادسة والعشرين جميلة من كل ناحية . صاحب « الجارسونيرة » يعرف الكبرى ولكنه لا يعرف الصغرى . وجرى التعارف والصغرى تحدق فى وجه الاستاذ بشغف وفضول ..

ودار الحديث والصغرى واجمة . تسمع ولا تنبس ببنت شفة لفت هذا الجمود نظره فوجه اليها حديثه وأخذ يحييها وهى ذاهلة . ثم كان اغماءة نصف يقظة قد غشيتها فهى تغيب عن المجلس وعما يدور فيه ، ثم تتنبه وتتأوه ؟...

قال الاستاذ لنفسه : ان فى الامر شيئا

ثم قال لها : هل السيدة تشعر بتعب ؟ !
قالت بخفوت : لا
ثم قالت : نعم
قال : بماذا تشعرين ؟
قالت بظرف : لا تنشغل . الامر هين
ثم نهضت فجأة بشكل عصبي واشارت اليه ان يتبعها الى الصالة ...

قام وراءها وقد شغلته هذه الحركات العجيبة . وفي ركن من اركان الصالة همست في اذنه قائلة :
هل كنت تسكن « مصر القديمة » منذ خمسة عشر عاما ؟
قال مضطربا : نعم !
قالت : وكنت طالبا بمدرسة السعيدية ؟
قال مضطربا : نعم !

صمتت ، ثم حدقت ، ثم هطلت دموع ثم ارتمت على الكرسي ... تناول يديها واخذ يهدىء روعها وهو لا يذكر شيئا. وهو اذ يحاول ان يستدعي صديقتها الكبرى تقبض على انامله ثم تشدها شدا الى ماوراء اذنها اليمنى وتهمس : المس ، وتذكر !

جرح ؟ !
بل اثر جرح ؟ !
ويفيق الاستاذ من نوبة المفاجآت ويصرخ بجزع : انت ؟ ! أنت ...
فتقول : نعم انا ! انا « احسان » ...

***

احسان ! ...
احسان الصغرى أخت سميحة ...
وبعد خمسة عشر عاما ..
قال وقد تحركت عواطفه من قبرها الذي دفنت فيه في سنة ١٩١٢ :
ـ وسميحة ياحسان كيف حالها ؟
قالت : مثلي أ ...
قال : ماذا تعنين ؟

قالت : هكذا . . . نزورك ونزور أمثالك من سكان الجارسونييرات !
وأخذت تبكي بكاء مرا وقد وقف بجوارها مذهولا متحسرا متألما وهو يقول : ما أقساك أيها القدر ! . . .

❊ ❊ ❊

وفي اليوم التالي حضرت الشقيقتان وكانت مناحة . . .
لقد مات زوج الكبرى وخلف أولادا وخلف فقرا . . . ومات ابو الشقيقتين وخلف هو الآخر فقرا . . بقي الاخوة الرجال الكبار الذين يحتلون اليوم مناصب الدولة الكبيرة في بعض المصالح بالقاهرة . منهم الذي يشرف على معاهد الاخلاق ، ومنهم الذي يدير ملاجيء البؤساء التعساء ، ومنهم الذي يجري الرزق على معشوقاته ببذخ وأسراف ، ومنهم الذي برز في الهيئة بروزا ساطعا . . .
يكفي أن تقول احدى هاتين لاحدهم : انا اختك ! لتحطمه تحطيما أدبيا أبديا . ولكن بالعواطف المرأة حين تقبر سرها من اجل الآخرين ؟ ! . . .
هؤلاء الانذال تركوا الاختين غير الشقيقتين للقضاء والقدر وللدنيا . ضنوا عليهما بالقوت فدفع « المرض » الثمن فلم يبالوا !
أيها الناس : لاتحتقروا بالله عليكم هذا الصنف من « ضحايا القدر » واصلحوهن ان وجدتم مجالا للاصلاح ، فان بؤستم فلا أقل من العطف ولا أقل من احترام الدموع والاشجان ! ! !

❊ ❊ ❊

ان « قصص الجارسونييرة » عديدة وكلها من لون هذا الالم النفساني ومن نوعه . ولو احتمل المحال لقصصت عليكم مائة مأساة ومأساة . .
يعيب المتطرفون في عالم الاخلاق الفاضلة على الشباب مثل هذا السلك الذي يعدونه في نظرهم معوجا . . .
ولست أحاول الدفاع فاني من ذلك الرأي ، ولكن لابد للكاتب الاجتماعي ان يتصل بالمجربين ليدرس وليتعلم ان لم يغمر نفسه متعمدا في خضم ذلك البحر الرهيب . والا فمن أين يغترف النصائح وهي بنت التجربة ووليدة الاختبار ؟ !

❊ ❊ ❊

قلت لصديقي « شكري » يعدان وصلت في كتابي الى هذا الحد : هل عندك من مزيد ؟ !

قال : عندى الادهى والامر . عندى تاريخ أربعة أعوام رهيبة ، ولكنى سوف أخفيه عنك الى أجل . . .

قلت : ولم ؟ .

قال : لانه متصل بالدولة ، وبسياسة الحكم وبالانقلاب ! . .

قلت : وهؤلاء ؟ !

قال : مثلى ومثلك تماما ، غيرأننا ، أنا وأنت ، من « الاحرار » الذين لاتقيدهم زوجة ولا عيلة ولا أولاد — من الذين لايحملون على جباههم عنوان الوظيفة ، ولا علم الدولة ، ولاواجب الحكم — من الذين لاتتأثر بسلوكهم المريح مصالح العباد . . .

قلت : وهل من علاقة بين المرء ، والدولة ؟ !

قال : هذا هو موضوع مذكراتى الآن ، فاستلمها منى بعد عام .

. . . . . .

فراق وخاتمة

فى صيف ١٩٣٢ ظفرت «بالضاحك الباكى» فى بلاج من بلاجات الاسكندريه الثائرة فقرأت عليه قصته الاستعراضية . ووجدته قد تغيرت أخلاقه ، وقد اتزن . .

قال : اقترح عليك أن نفترق . . .

قلت : لامانع عندى . ولكن الا ترى أن تكتب بيدك خاتمة قصتك ؟

قال : حسنا . اليك كلمتى الاخيرة :

« مواطنى الشبان :

« شاء صديقى أن يقدمنى اليكم شابا مستهترا لتنتفعوا بمآسيه ومباذله . . .

« انى اقبل هذه التضحية فى سبيلكم عن طيب خاطر . . .

« لكن تحت شرط :

« أن تقبلوا منى نصيحتين اثنتين :

الاولى : أن تتزوجوا قبل الخامسة والعشرين . . .

والثانية : ان لاتشتغلوا بالسياسة قبل الخامسة والثلاثين . .

والى اللقاء

شكرى